اقرأ

واصف البارودى

وعى الشباب

دار المعارف بمصر

وعي الشباب

واصف البارودى

وعى الشباب

اقرأ ١٥٠
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٥٠ — يونيه ١٩٥٥



مقدمة

أقدم للقارئ العربى الكريم قصة «وعى الشباب»، وفى نفسى رغبة ملحة فى أن أؤكد له بأن اشتراك الخيال ، فى تأليف حوادثها ، لم يكن ليؤثر مطلقاً فى إبعاد هذه الحوادث عن واقع الحياة . فهى حوادث واقعية ، باستطاعة المؤلف أن يذكر جميع ملابساتها ، من أسماء الأشخاص ، والأمكنة ، وفى تعيين الأزمنة . فهى حوادث وقعت فى صميم الحياة . وإذا ما ألفت ، فى قصة واحدة ، فلتثير بتواليها ، ما يثيره القصص ، من تأمل وتفكير واعتبار ، إذا ما توالت فيها الحوادث ، وتعاقبت!

لم يكن تأليف قصة ، بين القصص ، هدفاً لواضعها . وهو إنما يرمى لتحليل بعض الأوضاع الاجتماعية ، بتحليل ما يتصل بها من أنواع ، فى التفكير ، والشعور ، والسلوك ! ولتوضيح إمكانات الإنقاذ ! . . . فهى إذن ، محاولة ، فى الإصلاح ، اتخذت شكل القصة ، ويكفيها أن تثير أبحاث هذه المواضيع الحيوية ، فى نمو الحياة ، فى المجتمع ، وفى الأفراد ، ولا سيما فى الشباب . ويسرنى أن أعيد هنا قولا ورد فى مقدمة كتاب « الحياة والشباب » وهو :

« قد أكون مصيباً فيما ذهبت إليه ، وقد أكون مخطئاً . . .
وليست الأهمية فى مظاهر الخطأ والصواب ، بل فيما يجب
أن تثيره ، قضية الشباب ، من دروس وأبحاث ، تستمد
مناهجها من واقع شبابنا ، ومن واقع مجتمعه ، وواقع
البلاد التى يعيش فيها. وتقتبس مواردها مما يحتاج إليه الشباب ،
فى حياته ، فردية واجتماعية ، على ضوء العلم الصحيح ،
وتطور المجتمع ، فى التاريخ ، متجهين لما تهدف إليه
الشعوب العربية من أمان وآمال ومثل ! ... »

ولعلك واجد فى هذا القول ما يبرر اتجاه المؤلف ،
لجميع الشعوب العربية ، فى قصته هذه ، وفى كتاب « الحياة
والشباب » ، وقد سبقها . فهو يعتقد ما عبر عنه الشاعر فى
قوله : « كلنا فى الهم شرق » . فمشاكل العرب ، فى جميع أوطانها
واحدة ! . . . وواحدة هى وسيلة الإنقاذ ! . . . وبتعاون
البلدان العربية ، جميعها ، فى حقول الإصلاح ، تتحقق
الآمال ! . . .

بيروت فى ١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٤ — المؤلف

١

هى ؟ ! . . .

كاد البحر يتقد نوراً ، بفعل انعكاسات أشعة القمر ، وقد كان بدراً ، فى تلك الليلة الفاتنة ، بسحرها العجيب ! ! . .

إنها ليلة ساحرة ! . . . فهند تشعر ، فى أعماق نفسها ، بتبدل جذرى عنيف ؛ ولكنها ترتاح إليه ، على غموضه ، ارتياح الزهرة ، ينشق كمها عنها ، برعماً مسجوناً ، فى ظلمة الوجود ؛ فلا تلبث ، إذ تنفعل بنور الأجواء ، المحيطة بها ، أن تتفتح ، فتزهو بألوانها الزاهية ، ورائحتها العطرة ، وجمالها الحلو الجذاب ! . . وتدل على العالم بما وهبها الله من ألوان وعبير وجمال !

لم تكن الليلة الأولى ، تطل فيها هند من على شرفة غرفتها ، لتتمتع بهذا المنظر البديع ! فهى منذ سنوات تنعم بفتنة هذه الإطلالة ، وتغذى روحها بروعة هذا المنظر ، كلما اكتمل هلال القمر بدراً ! . . . ولكنها كانت ترى فيه منظراً من مناظر الطبيعة الجامدة . فما بالها ، الليلة ، تراه ،

وقد دبت فيه الحياة ، فأصبح مشهداً من مشاهدها ، يضطرب بالأمانى والأحلام والآمال ؟ !

ما لهذه الجواهر الماسية ، وقد تكونت على سطح البحر ، أمامها ، بفعل انعكاسات أشعة نور البدر ، تتحول إلى أجرام حية تتحدى القمر ، فتبيت له أمراً ، وتضمر له شراً ؟ . . . إنها ترسل من نورها المستعار سهاماً ، ترسلها إلى العلاء ، لتمد بها نجوماً ، كسفها هذا القمر الظالم ، ليظل وحده البارز فى سماء الوجود ؛ مع أنه أصغرها حجماً ؛ وهى تبعث النور أصيلا من ذاتها ، وهو يستمده من شمس ، يتسكع على أعتابها ! ! . . . وما كان القمر ليستطيع ذلك لولا قربه من الأرض، وبعد النجوم عنها !.. ولولا أن أسعفه الظلام !... الحالك ! . . . وما كانت هند لتبرر تمرد جواهر البحر على من يهبها النور ، وبه تتكون ، لولم يكن تمرداً على الظلم ! . . . وهى ترى أن مقاومة الظالمين قد تبرر كل وسيلة ! . . .

ظلت هند تسرح ، فى بيداء خيالها ، وتنعم بما يتجلى لها من مظاهر الحياة ، فى الجماد ، حتى انتبهت لذاتها ، فخجلت من ذاتها ! إذ لا يجوز، وهى فى التاسعة عشرة من عمرها ، أن تتقهقر ، فى تحقق تكونها فى الوجود ، فتعود طفلة تنخدع بحياة الجماد . والطفل لا يدرك أنه هو الذى يمنح

الجماد الحياة ! ... أدركت هند ، بعد أن عادت لنفسها ، أنها هى الحياة . وأنها هى التى منحت مناظرها ، الجامدة المألوفة ، هذه الروح الجديدة ، من حياتها . ولكن بهاء تلك المشاهد غيبها عن ذاتها ، برهة من الزمن ، فأعادها لحالة طفولتها ، فتوهمت الجماد يضطرم بالحياة ! ولولا وعيها لذاتها ، لما أدركت أنها هى التى تهب الكائنات الجامدة حياتها ! ...

فالشباب تنمو فيه الحياة بين الحزن والفرح ، وبين الغم والانشراح ، وبين الضيق والفرج ... ويتبدل نظره إلى الوجود ، بحسب ما تتوالى عليه الأحوال ، فكل شىء مظلم أسود ، إذا انكمشت النفس ، لحزن أو غم أو ضيق ؛ وكل شىء أبيض منير ، إذا ما انبسطت أسارير النفس ، لفرح أو فرج أو انشراح . . . وكل شىء جامد ، لا حياة فيه ، ولو كان من الأحياء ، إذا ما وضعت النفس على عينيها منظار اليأس والقنوط . وكل شىء حى متحرك ، ولو كان من الجماد ، إذا ما تلألأت العيون ببريق الأمل والرجاء ! . . . وصدق من قال : كن جميلا ، تر الوجود جميلا ! . . .

فأى جديد عرض فى حياة هند ، وجعلها تعود لمرح الطفولة ، فتمنح الجماد حياة ؟ . . . وهذه حالة ، كثيراً ما تعاود الإنسان ، ولا سيما فى دور الشباب ! ولولا الوعى ،

توقظه التفاتة إلى المستقبل ، لما بذل الإنسان أى جهد للتحرر من الطفولة ، ولما حاول إنقاذ ذاته من أوهام الأطفال !

هند طالبة فى الجامعة . ومن توفيقها أن المعهد الذى تنتسب إليه ، يتبنى مبادئ الاتجاهات العلمية الحديثة فى التربية . فلم يكن ليغيب عن ذهنها ، وهى تتخصص لتكون بين مربيات الجيل الطالع ، أثر ما يكنه الفؤاد[1] ، فى سلوك الإنسان . فما الذى بعث فى نفسها هذا المرح الطفولى ، فطفقت تتوهم كالأطفال ؟ وأى حادث ، غيبه الفؤاد ، يجعلها تشعر باطمئنان يشوبه الحذر ؟ ! . . .

عادت هند إلى ذاتها ، وأخذت تتأمل فيها . وإنها لتعلم أن التأمل الذاتى ، هو الذى يكشف للنفس ذاتها ، وينبش مكنونات الفؤاد . ولعلها كانت تعلم أيضاً ، أن فى تحول مكنون فؤادى ، إلى صورة وجدانية[2] ، إمكان الإنقاذ من أوهام بعض الأمراض المستعصية ، أو من أمراض بعض الأوهام المكبوتة . ولم تلبث

---

(١) نقصد بالفؤاد ما تعنى حديثاً كلمة «inconscience» وقد أوضحنا ذلك فى كتابينا «محاضرات فى التربية والتعليم» الجزء الأول ص٢٧٠ (الطبعة الثالثة) و«الحياة والشباب» الطبعة الثانية ص ١٤١ فليرجع إليهما .

(٢) الوجدان مقابل كلمة « conscience » راجع البحثين المذكورين فى الرقم ١ .

طويلا ، فى تأملها الذاتى ، حتى ارتفع نظرها إلى الأفق البعيد فاستغرقت فى حلم من أحلام اليقظة ، رأت فيه أن انعكاسات أشعة نور القمر ، على سطح البحر ، هناك فى الأفق ، لم تكوّن ، كما رأت عند الشاطئ ، جواهر ماسية متفرقة مترجرجة ، ترسل سهام النور ! وإنما كونت كثيباً عظيما من الألماس المرصوف ، يتلألأ بأشعة وهاجة . . . وقد اعتلى ذروة الكثيب قيس ! . . . نعم إنه قيس ، ذلك الشاب الطائش ، ينظر إلى القمر ، متأملا ، وبهدوء عجيب ، بالنسبة إليه ، هو الذى لا تسكن حركته ، فى وقوف أو قعود ، ولا يكاد يتأمل ، لكثرة ما يصخب ويثرثر . . . ثم ما لبث أن التفت إليها . . . ولم تتميز ، أكانت نظرة عاتب ، أم حانق ، أم معترف بالجميل ولكنها كانت على كل حال ، نظرة رصينة ، فيها كثير من التأمل ! . . .

لم تلتق عينا هند بعينى هذا الخيال الماثل أمامها ، شخصاً سوياً ، مكتمل التكوين ، ومعبراً عن معانى قيس ، بتفاصيلها ، حتى اهتز قلبها ، حناناً ، وارتعش كيانها ، هلعاً وحذراً ! . . . فأدركت أنه هو المستقر فى فؤادها ! وهو ، هو قيس ، يوحى ، من أعماق ذلك الفؤاد ، بما بدل ، ويبدل ، فى ذاتها من أحاسيس ومشاعر وتفكير ! ويخلق فى نفسها نوعاً

من المرح المطمئن ، يعيدها لعهد الطفولة ، فى تصور الطبيعة وفى منحها الحياة ! ! . . أتراه الحب ؟ ! . . وهى تعلم أن الحب هو إكسير الحياة ! فلا يزال يتسامى بالحياة ، حتى يحولها لأسمى ما قدر لها فى الوجود ! ؟ . . ولكن أيعقل أن يستقر ، فى أعماق فؤادها ، حب فتى ، ترى أنها قد آذته ، عندما وجهت إليه لومها العنيف ، منذ يومين ، وقد كان فخوراً بنجاح إضراب نظمه ، ومظاهرات صاخبة قادها ؟ ! . .

إن قيساً شاب طائش ، شديد الانفعال ، وعجول فى تصرفاته . ولكنه مقدام ، فى جرأته ، ذكى فى سرعة خاطره ، وفىّ لعهوده ، وصادق فيما يعد ! . . يثق به رفاقه ، ويعتمدون عليه ، وإن كانوا يتجنبونه لكبريائه وغروره ، ولقسوة صراحته فى أقواله ، ولشدته ، فى أفعاله !.. فهو للملمات ؛ ولا يكادون يتفرقون عنه ، فى الأحوال العادية ، حتى يشعروا بالحاجة إليه عندما يبدو لهم أن يقوموا بمظاهرة ، أو أن يقرروا إضراباً . فلا أحد منهم يستطيع أن يقوم بما يقوم به هذا الفتى الشرس المتغطرس المغرور ! . . لذلك يلتفون حوله ، عند الاقتضاء ، ولا يخيب لهم رجاء !

عرفت هند قيساً ، فيمن عرفت من طلاب الجامعة ، منذ سنة ، عندما التحقت بمعهد التربية ؛ وكان هو قد أتم

سنته الثالثة ، فى معهد الطب . وكانت دائماً تخشاه، كما تخشاه سائر الطالبات ، من الأوانس ، لشراسته ، ولكنها لا تفرط إفراطهن ، ولا تغلو بالنفرة منه ! . . . ولعل وثبة عبقرية الجنس[1] ، وبها تتحقق أسبقية النضج فى الفتاة ، على الفتى ، فتمتلك المبادرة فى الإرشاد والتوجيه . . . لعل هذه العبقرية الخالدة ، هى التى جعلتها ترى ، فيما ينسب إلى قيس ، من كبرياء وغطرسة وغرور ، سوء تفهم لمظاهر الإباء النافر الحذر ، وهو ما يتميز به الشباب ! . . . ولعل حدس هذه العبقرية أوصلها ، دون شعور ولا تفكير ، وبما تلقته ، فى دراستها لعلم النفس ، من مبادئ ، إلى أن ما يتوهمه الناس طيشاً ،فى الشباب، مدللين عليه بمظاهر الانفعال والعجلة والتشتت والذهول ، قد لا يكون سوى نهم المعرفة ، فى طلب الحقيقة ، ليستمد منها القوة ، التى تساعده فى وثباته للذرى، وتسهل له طريق سيره ، فى تمايزه ، ليشعر بتبعة الحياة !.. بل لعلها تأولت ذلك كله بحيوية الذكاء، وباتقاد شعلة الطموح!... ولعبقرية الجنس ، فى الفتيات ، عينان تخترقان الحجب ! . . وهنيئاً لكل شاب ، تجده فتاته ، فتهتم بتفهم حقيقة ذاته ،

---

(١) فى كتاب «الحياة والشباب» للمؤلف ص ١٩٣من الطبعة الثانية بحث عن عبقرية الجنس فى المرأة .

ولا تخدع بالمظاهر ، ولا بما يراه الناس ، ويتقولونه ، فتكون له منارة إرشاد ، وملجأ إنقاذ ! . . .

إن هنداً كانت تثق بقيس ، ولكنها ما كانت تستطيع التنبؤ بأنه سيصبح حبيبها ، يوماً ! . . . لم يكن قلبها يحدثها بأى شيء ، قبل تلك الحادثة ، وقد وقعت منذ يومين ، إثر عودته من قريته ، بعد عطلة الربيع . إنه كان يتبجح ، على عادته ، بأن نجاح الإضراب الصاخب بالمظاهرات الداوية هناك ، إنما كان بفضل تكتيك ابتكره ، فأنقذت كرامة الزعيم ، وأفرج عمن سجن من أتباعه ! وقد كان هؤلاء قد اعتدوا على بعض من أتباع حزب معارض ، لا يؤمن بتلك الزعامة . لأنها ، فى نظرهم بؤرة استغلال ، تستنزف نشاط الشعب ، وتستعبد ضمائر أفراده ، وعقولهم ، لتثرى على حساب فقرهم ، ثم تزهو عليهم بترف سفيه سخيف ! ! . . .

لم تكن هند لتصبر على هذه المباهرة السخيفة ، تعتمد على شعبية رخيصة ، فى نظرها ، فخرجت ، خلافاً لعادتها ، عن رصانتها وهدوئها ، وكانت تزأر كاللبوءة المكلومة ، وهى تقول : كفاك هزءاً بإخوانك وبنفسك ! . . أجدير ، ذلك المتغطرس الدنىء ، بعطف الشعب وشبابه ؟ . . إننا نعرف من هو !.. ونعرف كيف جمع ثروته !.. وكيف فرض زعامته !...

أيليق بالشباب ، وهو إطلالة جديدة للحياة على هذا الكون ، إن يستكين لضغط الماضى ، ولا سيما فى بلادنا العربية ، وقد كان عهد انهيار وفساد وإفساد ، كما تعلمون جميعاً ، فيفرض علينا عقلية ذلك الماضى ، فى زعماء نستعيرهم منه ، ونعجز عن أن نكون لأنفسنا ، فى تفاعلنا الاجتماعى ، زعماء يعبرون عن وثبة النهضة ، والتجدد فى كيانها ؟ ! . . ليست صحيحة تلك الزعامة التى تفرض ذاتها ،على الشعب ، لنسب ، أو مال ، أو لمسايرة مصالح خاصة ، أو مآرب فردية ملتوية ! . . وإنما الزعامة الصحيحة ، هى تلك التى يفرضها الشعب ، بانبثاقها عنه ، لتعبر عن آلامه وحاجاته ، ولتقوده لدفع تلك الآلام وتحقيق تلك الحاجات .. إنها زعامة تعطى وتضحى ،لا استغلال يأخذ ، ويكون الشعب وحده ، الفداء . . . وأى فداء ؟ ! .. فداء لجشع فرد دنىء ، يستغله ويستعبده ،ويترف على حسابه... وليته يعترف له بالجميل ، فلا يخونه بالتقرب إلى من يتربص بالشعب الدوائر ، من الأجانب ! . . . وما نكبة فلسطين إلا أثراً من آثار أمثال زعيمك ! ! . . . فى استهتارهم وروغانهم ، واستغلالهم ، دونما أى تفريق فى الجهات التى تشبع جشع الاستغلال ! ! . . . فإلى متى تنحتون الأوثان وتعبدونها ، وهى تهزأ بكم ؟ ! . . . إلى متى تتلهون بانتصارات سخيفة رخيصة ،

نتائجها لغيركم؟ ! ... وإذا ما أصابكم من الغنيمة سهم ، فهو سهم المستخزى ! ... يدفعونكم ويتوارون . وإذا ما تم لكم النصر ، برزوا ليستولوا على النفوذ والمال والأطيان ، بالقوة أو بالخداع ، أو بالرشوة ! ! ... شمختم بأنوفكم بالأمس ، لانتصاركم فى تخفيض أسعار السينما ، فزدتم ويلاتها فى نفوس الشباب والأطفال ! . . . انتصار رخيص ، عطلتم لأجله الدروس ، ولا أدرى ما ذنبها ؟ وقاطعتم المدارس ، ومن يعلم ما هى علاقتها فى الأمر ؟ ! . . . فما الذى كان يمنعكم عن إلجائها إلى التخفيض بالامتناع عن ارتيادها ، أياماً معدودة ، وبنشر فكرة هذا الامتناع بين أهلكم وذويكم ؟ وكأنى بكم لا تستطيعون أن توحدوا كلمتكم ، إلا وسط الضجيج والشغب ! وبتجريم من لا علاقة له بما تشكون من حيف ! . . فتعرضون أنفسكم لاتهامات ، قد تكونون ، أو يكون أكثركم ، بريئين منها ، ولكن . . . فسحتم مجالا واسعاً للقول بأن سياسة خاصة لأناس ، فى الداخل ، أو فى الخارج ، قد دفعتكم ، لتستغل هى ، هذا الشغب ! . . . والثمن رخيص ، تأييد ظلم متزعم مستغل... أو تخفيض ضئيل ، ليته فى سبيل استكمال الثقافة الصحيحة ! . . . وليته تم عن غير طريق الإضرار بها ! . . .

وهنا ازداد انفعال هند ، فصرخت قائلة : عار على شبابنا ،

والمستقبل يستنجد بهم ، فى جميع بلاد العرب ، أن يتلهوا بالانتصارات الرخيصة ، وأن يبذلوا قواهم ، ويصرفوا طاقة وثبات الشباب ، فى نفوسهم ، فى توافه الأمور ! ... والخطر كل الخطر ، هو فى أن يتعود شبابنا المطل على الحياة ، الانصراف إلى الانتصارات الرخيصة ، والتلهى بالترهات والتوافه !. . . والحياة تدعوكم اليوم ، وفى وسط هذه النكبات ، لتعودوا إلى المساهمة فى تحقيق أسمى الغايات ، فى تقدم حضارة الإنسان ! . . . فإن أجبتم لانت لكم الأيام ، وإلا فقدتم وجودكم فى سلم الحياة !... وللشباب وحده أن يختار ! فإنه الأمل ! . . . وشبابنا لا يستطيع الاعتماد على جيل سابق ، أفسدته عقلية عهود الانهيار !

وما بلغت الثورة فى حديثها هذه الذروة ، حتى شعرت هند بانفعال شديد ، آثرت معه الانسحاب . فثبتت عيناها ، المتقدتان بشعلة الحماسة والإيمان ، وقد يكون من مصادر اللهيب شيء آخر ، لم تتبينه بعد . . . على قيس ، فوجدته صامتاً هادئاً ، وكأنه مطمئن بانفعاله ، يتأمل مطرقاً ! . . . فانكفأت منسحبة . . . وما بعدت قليلا ، مسترقة السمع ، حتى سمعته يقول : لعلها على حق ! . . . بل إنها على حق ، ولا شك ! . . فتجرأت واسترقت النظر ، بعد أن سارت قليلا ، فإذا الجميع فى دهشة المفاجأة : مفاجأة تحول الذئب حملا ، فى لحظة من

الزمن ! . . . وكلمة الذئب لقب ، كان يطلقه عليه رفاقه ، لظاهر شراسته ! ولكنهم كانوا يرون أنه شريف طيب القلب ! . . .

شريف . . طيب القلب . . كلمتان تذكرتهما ، فضربتا على أوتار القلب . . . فاهتز ، وعزف موسيقاه الخالدة ، فى أغنية الحب الأبدى فى أزليته السرمدية ، فصفق الجناحان ، وطارت النفس طرباً ، تحوم ، فلا ترى فى الوجود ، غير قيس ماثلا أمامها ! . . . توارى البحر ، وما عليه من جواهر وتحف . . . وغابت السماء ، وما علق بها من نجوم وكواكب وشموس . . . وحجب الحب ، فى تلك اللحظة السعيدة ، بينها وبين كل موجود على الأرض ، وفى السماء ، وما بينهما ، سوى موجود واحد ، هو قيس ! . . ذهب من خاطرها كل شىء حتى حلمها الذى هى فيه ، ما عدا قيساً ، فقد كان وحده ، الموجود ! . . إنها ، فى تلك الهنيهة الهادئة ، لم تعد ترى غير قيس ! . . . ولم تكن تستطيع أن تسمع سواه ، أو أن تحس بوجود غيره ! . . قيس أصبح كل شىء ! وفى كل جهة تكتنفها يهتف بها نداؤه ! . . . وياله من نداء عذب رقيق حبيب ، يبلغ القلب ، فى دهشة أذن ، يرتد إليها رجع صداه ! وما ذلك الرجع سوى أغنية ، يعزف القلب موسيقاها ، على أوتاره ، وقد حرك ألحانها كلمتان ، هما : شريف . . . طيب القلب . .

وما هما بكلمتين ، وإنما هما ، مع معان وكلمات أخرى ، كلمة واحدة ، هى . . قيس . . . وحده ! . . . قيس الذى أصبحت آمالها كلها متجهة إليه ! . . إن عاطفة خفية ، وقوية ، تدفعها إلى قيس ، وأنى لها أن تقاوم ، وهى قد أصبحت تشعر ، فى صميمها ، أن قيساً أصبح ضرورياً لها !. . وهل فى الوجود قوة ، غير الحب ، تجعل الإنسان ضرورياً لإنسان آخر ، فى تكامل إنسانيته ، وفى تكون ذاته ؟ ! . . .

ماذا أحبت هند فى قيس ؟ ! . . أهى طيبة قلبه ، واعتقاد الناس بشرفه؟ أم ما يراه الناس فيه من طيش وشراسة ، تراهما هى نشاطاً وإباء نافراً ؟ . . . أأحبت جماله فى جسمه ، أم هناك جمال روحى يستشف له الجسم ، فتبرز معالمه بريقاً فى العينين ، وملامح فى الوجه ، ونشاطاً فى حركات الجسد ، وسكناته ؟ ! . . أهى تحب ازرقاق عينيه ، أم التقاء حاجبيه ، أم رشاقة حركاته ؟ . . أكان لنبرات صوته ، فى حديثه ، ذلك التأثير على نفسها ، أم لتدفقه فى كلامه ، تدفق النهر فى هديره ؟ ! ... إنها فى الحقيقة ، لا تدرى ماذا تحب فى قيس ! .. إنها فى حيرة ، حاولت معها الفرار ، فإذا هى تفر إلى ذاتها ، فتجد قيساً فى فؤادها ، يملأ جميع الأرجاء ، فأدركت أن حبها هو حب كل لكل ، حب لا تجزئة فيه ! فهو إذن حب صحيح ، لا يقبل الزيف.

فلو أن هنداً تحب فى قيس جماله الجسدى ، كلاًّ ، أو جزءاً ، كحسن فى عينيه، أو حلاوة فى قوامه ، مثلا ؛ ولو أنها تحب روحه ، لخفتّها ، أو لطلاوة فى حديثه ، أو عمق فى تفكيره فى مثل آخر ، لكان حبها جزئياً ، لا يستمر إلا باستمرار مظهر الجمال ، فى ذلك الجزء من الكيان ! فكيف إذا ما عرض له ملل ، يبعثه قبح ، جزئى ، كان مستتراً ، أو غيبته انجذابة هوجاء ؟! . . أما التعلق بكلية الإنسان، إذا كان أصيلا صادقاً ، فلا يزول وإن زال الكل ، بل يستمر بعده ، لأنه حب حياة لحياة ، قد يتجاوز فى قوته ، حدود الحياة ! . . هكذا وجدت هند قيساً فى ذاتّها ، عندما فرت إلى ذاتّها ، فاستقر الحب فى ذات المحب ، وانتعشت به الروح ، واطمأن القلب ، فى هزته ، وفى تصفيق جناحيه ، وارتعاش كيان ، ضمه . . ولو استقر فى ذات المحبوب ، لتعلقه بجزء من كيانه ، لكان اضطراباً ، قد يبلغ الهوس ، لا تعود معه الذات إلى الذات ، فتظل مستعبدة ، تحيا خارج كيانها ، بل تعيش ، ولا تعرف للتحرر معنى من معانيه ! فكيف بك إذا ما كان الحب يتصل بأشياء تتعلق بالمحبوب ، لا بذاته كالثروة والجاه ، مثلا ؟ . . فإنه فى هذه الحالة ، لا يخرج عن هوس فى الحب ، يشقى به الناس ، غروراً ، وادعاء ،

وهم ، عن هيكل الحب الصحيح ، فى بعد سحيق ! !

ارتاحت نفس هند لحبيب استقر فى فؤادها ، بكليته . . . فهى تشعر بالسعادة ، على قدر ما فى هذا الحب من غموض.. ولكن !. . . هل يضمر لها قيس الحب ذاته ، وهل هى مستقرة فى فؤاده ، بكليتها ، كما هو مستقر فى فؤادها بكليته ؟ ! هذه هى المشكلة التى ما فتئت تشغل بال المحبين ، ولا تفتأ تشغلهم ... وهى قد أخذت تشغل هنداً ، فبدا عليها الاضطراب والجزع ! !.. التفتت إلى البحر ، مستنجدة ، فإذا البحر بحر ، والجواهر على شاطئه لا تزال تتلألأ ، وقيس ، على متن كثيب الماس ، يرنو إليها بنظراته ، الحنون الحلوة ، من بعيد ! ! . . فعاودها الارتياح ! . . ولكن السحاب عذول قاس ، على ما يظهر ؛ فإن هذا السحاب القاتم ، وهو لا يعرف الشفقة ، أسرع فحجب نور القمر ، فزالت الجواهر ، والكثيب ! . . . وبقى قيس وحده ! . . . يدافع الأمواج ، ويكافح الغرق ! . . .

٢

هو؟ ! . . .

إنه قيس ! . . . وإنها الليلة الثالثة لسيطرة ملاك الأرق على نفسه ! لم يكن ليتصور من قبل إمكان انقلاب الشيطان ، المخيف المزعج ، إلى ملاك يحرس ويهدئ ! . . . فالحياة أعجوبة الأعاجيب ! . . كان يهلع قلبه للأرق يستولى عليه ! وكان يلعن شيطانه ! . . وهو الآن يطمئن للأرق ، ويباركه ، ملاكاً ، يحرسه ، فلا يبعد عنه شبح الحبيب ! ويهدئ من أعصابه ، فيقوى على النعاس ، ولا يضطرب ! . . فيهنأ ، فى تأملاته ، وفى مناجاته : يناجى شبح هند ، تلك الفتاة الرصينة الفطنة ، والحكيمة اليقظة ... إنه أخذ يشعر بحاجة ملحة إلى رؤيتها ، وإلى التحدث معها ! ويكاد يشعر ، منذ هزت قلبه تلك الهزة ، بتأنيبها الصارم القاسى . . . بل الجنون ! .. إنه ليكاد يشعر أن الحياة ، أصبحت دون هند عبئا ثقيلا ! . . . ولم التمويه ؟ فقد أصبح ، فى واقعه ، لا يرى الحياة إلا فى انعكاساتها على ذلك الوجه الحبيب ! . . فالحياة تلمع فى تينك العينين البراقتين ، وتكاد تقفز منهما . . . وليس للحياة

أى معنى ، إذا لم يعبر عنها ذلك الفم الجميل ! . . . رباه ! . .
أى شىء هذا الذى غير ذاتى ، وقلب كيانى ، فى شعوره
وتفكيره ونزوعه ، وبدل فى البواعث والحواس ؟ ! . . . تغير
وانقلاب وتبدل . . . أشعر بذلك كله ، وأشعر ، مع ذلك ،
بأنى ما زلت أنا . قد كنت ، وأعلم كيف كنت . . . وأنا
الآن ، أشعر بما أنا عليه الآن ! وسأكون ، وأستطيع أن
أحاول التنبؤ بما سأكون ، أو أن أتوهمه ! . . ومع ذلك أنا
أجهل ما سأكون عليه، أنا، فى المستقبل ! وأنا هذه ، لا أجدها
متعددة ، بتعدد التبدل والتغير والتقلب ، وإنما هى تظل واحدة
بالذات ، متوحدة، فى جميع الأحوال . . . رباه ! . . أنقذنى ،
فكلى تناقض... وإن عصا سحرية لمستنى ، فلم أعد أنا ... بل
ما زلت أنا . . . إنه السحر بذاته ، فهل هى ساحرة ! . . .
وهل هذا من شعوذة السحر ؟ . . . وإذا هاتف يلقى فى
روعه: أنه سحر الحب. . . والحب الصحيح لا يحتمل الشعوذة!
ففاتنتك ساحرة . . . ولكن ليس لها من الشعوذه أى نصيب !
وأنا ، فى ذاتك ، لم يتبدل جوهرها ! ولكن سحر الحب ، بدأ
يدفعها للتكامل ، فى ذاتك ، لتتكامل فى ذاتك ، فظننت
التفاعل تناقضاً . . . ولا خوف عليك إلا من الغفلة والجهل
والغباء ! . . . فكن يقظاً ! . . .

وفيما هو يناجى ربه ، ويستغيث به ! . . وفيما هو ينصت خاشعاً ، لهاتف الفؤاد ، يخاطبه من السماء ! . . . وقع نظره على البدر بازغاً ، يختال فى هالة ، تتكون من نوره ؛ فاستغرق يتأمل فيه ، وغفل عن ذاته ! إنه لا يدرى ، أيصلح البدر ، فى حالته هذه ، موضوعاً لتأملاته؟ أم أنه قد أضاع هو صوابه ؟.. إنه البدر ، يراه كل شهر ، منذ سنوات . فما باله يرى فيه اليوم معانى ، لم يكن ينتبه إليها من قبل ؟ !. . إنه لم يكن يأبه للبدر ، إلا بقدر ما يأبه له سائر الناس ، وبدرجة اهتمامه بسائر المظاهر الطبيعية ، والأشياء . ولكن البدر اليوم ، أعظم قوة ، وأوفر إشعاعاً ، للمعانى والمغازى ، وأشد جاذبية من أى وقت آخر : إنه قد جذب قلبه ودماغه وفؤاده ، وجعله يدرك ما تعجز لغته عن التعبير عنه ! . . . أيكون بدر المحبين غير بدر سائر الناس ؟ ! . . ولو علم أن السر فى التقاء العيون ، لغاب عن الوجود ! ! . . روحان تتعارفان ، على بعد الشقة ، بالتقاء النظرات ، يدفعها كل فؤاد ، سهاماً نورانية ، تمازج وتتفاعل ، فتمهد بها الحياة لذلك الائتلاف الروحى ، عند أول لقاء ! . . فتتعانق الروحان ، لتتكامل كل روح منهما بروح الآخر متسامياً إلى العلاء ، فتتحقق إنسانية الإنسان ، هدف الحياة فى إيجاد الأحياء ، ولله فى خلقه شئون ! . . .

علمنا أشياء عن قيس فى تأملات هند ! . . أفلا تطلعنا تأملات قيس على أشياء وأشياء ، تتعلق به وبمن يتجاوب معها عوامل الانجذاب ، فى حب إنسانى صحيح ؟ . . إن قيساً من أولئك الشبان الطائشين النافرين ، فى نظر الناس ، لما سيطر عليه من شراسة ظاهرة ، ومشاكسة ، قد تضيق بها الصدور . إنه عجول فى حركاته ، ومتسرع فى تصرفاته ! أخذ ينفر من المرأة ، ويحذرها ، منذ سنتين ، وقبل أن يتعرف بهند ! . . . وكان قراره أن لا يشرك فى حياته امرأة . . . أبداً ! . . . وأصبح لا يرى فى المرأة سوى وسيلة للعب والدعابة والمغازلة . . . فكانت حقيرة ، فى نظره ، وليست جديرة بأكثر من ذلك ! . . فما له اليوم ، وهو يكاد يعبد المرأة ، فى هند ، بعد أن أسرته بشدتها ، لا بلينها ، ولا بنعومة حديثها ، شأن أكثر الفتيات ، فى اجتذاب الشبان فى هذا العصر المائع ؟ ! . . ولم يكن قيس وحيداً ، بين رفاقه ، فى اتخاذ هذا القرار ، وفى احتقاره للمرأة !

عرف قيس هنداً ، منذ سنة . وكان يلتقى بها فى ساحات الجامعة ، وفى قاعات المحاضرات العامة . وكانت الزيارات العائلية تجمع بينهما أحياناً ، لما بين العائلتين من صداقة ، استحدثت ، بعد أن دخلت هند الجامعة ، بسبب مصاهرة

جديدة ، اقترن بها ابن عمها كريم ، بسلمى ابنة عم قيس .

حدثت قيساً نفسه ، أكثر من مرة ، أن يجرب مداعبة هند ، ومغازلتها ، كما يجرب مع فتيات اليوم ! . . ولكنه كان يرتد خائباً ، لرصانة كانت تتذرع بها ، ولخفر كان يحميها ويحرسها ! . . ولا يستطيع فتى ، مهما بلغت درجة استهتاره وإقدامه ، أن يجرؤ على فتاة ، تتذرع بالرصانة ، ويحميها الخفر ويحرسها ! . . وكان الطلاب ، وقيس منهم ، ينسبون إلى هند ومثيلاتها ، كبرياء الأنانية ، وجمود الرجعية . لأن الفتاة العصرية ، فى نظرهم ، هى الفتاة المتساهلة ، لاتأبه للحشمة ، ولا لما يستلزمه المجتمع ، من تحفظ وحياء ! . . ولو أدركوا أن هذه الأنانية ، على كبريائها ، هى أنانية مستملحة محمودة : « . . . إنها أنانية ثورة التحرر ، تكافح استكانة الاستعباد ! . . إنها ظاهرة من ظاهرات عبقرية الجنس فى النساء . . . »[1] وما هذه بالرجعية ، وإنما هى تجدد ما فى إنسانية الإنسان ، من مبادئ وقيم ! . . والفرق عظيم بين أنانية تحرر ، وأنانية تستعبد . . . وبين رجعية تتجدد ، ورجعية تركد وتأسن ! . . فلنميز بين التقدم ، فى استمرار الإنسان ، وتجدد حضارته ، بالصلة بين العصور والأجيال . . . وبين

---

(١) « الحياة والشباب » ص ٢٠١ ، طبعة ثانية .

التأخر والتقهقر ، فى رجعية بالية جامدة ، تقطع ما بين روح الحضارة الإنسانية ، فى أجيالها ، وما بين الإنسان ، فى واقعه ، من صلات ! . .

لهذا ميز الخالق المرأة بعبقرية خاصة ، بجنسها فيها تنضج الفتاة قبل الفتى ؛ وبها تسبقه ، فى التكامل ! . . وبفضل هذه العبقرية ، ذاتها ، تتفتح زهرة الحب ، فى نفسها ، حبًّا خالصاً ، صافياً وصحيحاً . . . قبل أن تتفتح فى الفتى ! . . . ولعلها لا تتفتح ، فى نفس الفتى ، إلا بتأثير تفتحها عند الفتاة ! . . فهنيئاً لفتى تجده فتاته ! . . ويالشقاء فتى يضيع عن فتاته ، بما يشغله عن ذاته ، من طيش واضطراب ، وغرور ! . . ومن استهتار وفساد ! . . . وقيس أصبح سعيداً ، إذ وجدته فتاته ! . . واستمرار سعادته ، إنما يتحقق ، إذا لم يضعها ، استهتاراً ، وبفعل الطيش والفساد ! . . .

« هند ! . . إنها مقدسة ! . . كيف لا ؟ . . وكل رغبة تصمت فى حضرتها ! . . فكأنى أصبحت لها ، بكليتى ، أتمنى تلبية كل رغبة لها ، وكفى ! . . أو ليست لى رغبات؟ فما لها تصمت ، وكأنى ، تجاهها ، عدم ! . . عدم يهوى الوجود ، وهى وجودى ! . . بهذه الكلمات كان يناجى قيس نفسه ، على سرير أرقه ، وعيناه معلقتان بالبدر ، البارز وراء

النافذة . وما انبثق ، فى نفسه، خاطر مقاومة لهذا الضعف، وهو من عرفنا ، فى شدة مراسه ، وغروره ، حتى انتفض كل كيانه ، وارتعش! فأدرك أن المقاومة لا تجدى، وأنه أصبح أسير حب لا مفر منه ! . . أراد أن يصيد ، على هوى طيشه وخفته ، فاقتنص ، كما يريد الحب الصافى ، فى سموه ورصانته وجده ! . . فأخذ يتأمل ، فى ذاته ، تأملا عميقاً ، لم يألفه من قبل... وهو من كان لا يفتأ يهتم بما هو خارج عنه! .. ومن يدرى ماذا اكتشف قيس فى ذاته — وبالتأمل والعزلة يكتشف الشباب حقيقته ، فى الشابات وفى الشبان — حتى تأوه ، وقال بصوت المستسلم ، باطمئنان وحنين :

آه . . . لا أدرى ما الذى كنت أشعر به بقربها ! . . كنت أشعر باجتذاب غامض ، خفى عنى ، شهوراً . . . وها أناذا أدركه الآن ، وقد أوضحت حادثة ذلك الدرس القاسى الذى ألقته على ، منذ يومين ، إبهامه ، وجلت ما فى ذلك الشعور من غموض! . . . كنت أمامها ، وأنا الذى لا يجرؤ أحد على معارضتى ، بله إرشادى ونصحى ، كالحمل الوديع ، يتملق صاحبه ! . . وأكثر من ذلك ، فقد كنت أجد فى حديثها ، على قسوته ، وشدته ، رقة تنعش روحى ! . . وحنيناً ينقلب معه كيانى ! . . ونعومة ، تتبدل بها ذاتى ! . . فما هو هذا

السحر ؟ . . سحرها ؟ ! . . ومنذ ذلك اليوم ، أصبحت أتشوق للقائها ! . . عفو الحقيقة ! . . فإننى ، فى وعيى لذاتى ، الآن ، أتذكر أننى كنت أتشوق إليها ، قبل ذلك ، ولكن لهيب الشوق ، تزداد حمياه ، منذ ذلك اليوم . . . الشديد القاسى ! ! . . . بل العاطف السعيد ! . .

نعم إنه سعيد ، يستمر امتداده إلى هذه اللحظة ! . . وما أروعه مستمراً إلى الأبد ! . . . فى هذه الحياة ! . . وبعدها ! إنه يوم سعيد، ولا أستطيع أن أتصور أنه يوم كان ، وحسب! إن سعادته ، تستمر متغلغلة فى كيانى ، على عنفها ! . . وما يضر السعادة أن تكون عنيفة تهز القلب ، فيهتز ، بهزته ، وجود الإنسان ! . . . ما أروع ذلك النور ، يشع من عينيها الشهلاوين ، فيبدد ظلام روحى ، وغرورى ! . . وقد كان الغرور ظلاماً يرين على قلبى ! . . وما ذلك اللحن الجميل ، طرب له قلبى ، فاهتز ، واهتزت بهزته تلافيف الدماغ ، فانقلبت الأعصاب أوتاراً تردد ذلك اللحن الجميل، يلازم عباراتها ، على عنفها وشدتها ، فترفعنى موسيقاها القوية ، إلى الأعالى ، فأنجو من تشويش أفكارى ، ومن أوهامها؟! . .

نظراتها ، نظرات بلسمية ، تشفى ما فى النفوس من جراح مهما قست فى تصويب السهام ! . . فجراح سهام العيون ،

تشفى جراحات النفوس والقلوب ! . . ولوم عنيف ، ينقذ من تشويش وأوهام ! . . ومن شأنه ، فى مثل عنادى ، أن يزيدها ! . . فاعجبوا يا ناس . . إنها المتناقضات ! . . ولكنها ليست الذروة منها ! . . فأنا أسير ، تيمه الحب ، واستعبده ! ومع ذلك ، فإننى أتنفس الحرية بملء رئتى ! . . فاعجبوا من أسر يحرر ، ومن استعباد يتحرر به الإنسان . . . وإياكم أن تسخروا ! . . فهو الحب ، يقلب الأوضاع ، فيجعل الداء دواء ! . . صدقونى أنى كنت أعتقد ، قبل أن أسرنى الحب ، أننى كل ما يمكن أن أكون ! . . ولكن ما كادت عصاه السحرية تلمسنى ، حتى أصبحت أشعر أننى أتسامى على ذاتى ، ولا أزال ، لأننى صرت ممن يعتقدون بلانهائية التسامى ، فى إنسانية الإنسان ، وتوحيده ! . . فرحى لمن تجده فتاته ! . . ولا يضيع عنها ! . . فهى التى يدفعها الحب الخالص الصادق لمساعدته ، فى تفتح زهرة الحب الصحيح . . . وهو حب منقذ محرر ، فى نفسه ! . . إنها الأم ، فى صميم طبيعتها . . . وبهذه العاطفة تكلأ فتاها بعنايتها ! إنها تحلم بالأمومة ، وبالبيت الذى ستنتشر فيه الغبطة والطمأنينة والسعادة ، فتشع فيه نوراً ، يستضىء به رجلها ، فى مهامه الحياة ، فلا يضل سبيله ! . .[1]

---

(١) « الحياة والشباب » ، الطبعة الثانية ص ١٩٨ .

وقيس يشعر فى صميم ذاته ، أن فتاته قد وجدته ، لأنه حريص على أن لا يضيعها ! . . إنه وقد وعى لمن تتكامل بها ذاته ، بعد أن شعر بدوافع التحرر والتحفز والسمو ، فى بواعث الحب الصحيح ، أصبح جزءاً من أن لا تبادله هند عاطفته ، فتصبح الدليل المضلل ! . . وفى لحظة هذا الشك ، فى أمانيه، وقد أصبحت، فى كيان ذاته، عنصراً مكونا من عناصر أناه الجديدة،أحس بانتفاضة قوية، وكأن تياراً كهربائياً لمسه، فقام من سريره ، مندفعا إلى النافذة ، يتأمل فى مغريات البدر ، فى تلك الليلة ! . .

ماذا يغرينى بالبدر الليلة ! . . إنه أنيس المحبين ! فليكن أنيسى ! . . . ولكن ما هذا الإشعاع المتوهج فيه ، أشد مما ألفت ؟ . . وما لهذه الهالة الحلوة ، تستمد من قلب المحب ، أى من قلبى ، صفاءها ، وسعتها ؟ . . رباه ! . . إنها هند ! تحولت بدراً ، تكلل رأسها هالته ! . . ما أروعها فى علياءها تسطو على البدر ، فتستولى على كيانه ، وتحوله ذاتاً لها ، وتغنم الهالة ، مستأثرة بها ، وحدها . . . ألا تفكر بقيس ؟ ! . . ومن قيس ؟ ! . . . إذا ظل بعيداً عمن أصبح لا يجد الراحة إلا بقربها ؟! . . إنها تنظر إلى . . إنها تشير بعينيها إلى الحرج، حرج الصنوبر . . .

تذكر قيس ، فى هذه اللحظة ، أن نافذة غرفته ، تطل على ذلك الحرج ! فالتفت إليه ، وأخذ بروعة النور ، ينعكس على شجر الصنوبر ، فيغمر الأشجار كلها ، ويقتبس من أوراقها اخضراراً ، يمزجه بلونه المتلألىء ، فينقلب نوراً مختلطاً مؤتلفاً ، يشع إشعاعاً خفيفاً ، ينعش القلوب ! . . والأفئدة ! ولا سيما قلوب المحبين . . . وأفئدتهم ! . . ولم يتبين ، أكان لون ذلك النور المزيج ، هو نور مخضر ، فى بياضه ، أو مبيض فى اخضرار الشجر ؟ ! . . ولم يهمه أن يتبين ذلك ! . . وكل ما تحرك به خاطره ، هو هذا التعجب الهادى : ما أروع جمال امتزاج الألوان المؤتلفة ! ! . . وما وردت هذه العبارة فى خاطره ، حتى ارتجف ، وقال : فكيف بالحب إذا جمع بين أليفين ، فامتزجت بهما ألوان الحياة ؟! . . ثم التفت ثانية إلى البدر ، فرآه هنداً ، تشير إلى الحرج ، فوقع فى روعه ، أنها رسالة من الحبيب ! . . .

هم بأن يقفز من النافذة ، ناسياً شبكة الحديد ، وكاد يصدم رأسه بحديدها ، لولا أن سبقته عيناه فقفزت إلى الأرض ، فأشغل بما تريان : ظلال الشجر مع انعكاسات أشعة البدر ، تنفذ من فرجات تلك الأشجار ، فتكوّن مشهداً جميلا ، يمتزج به النور بالظلام ! فارتاح قلبه لهدوء هذا المزيج ، ولسكون

معنى الحياة فيه ، فانبثق ، فى نفسه ، أمل هادئ جميل :
فالحياة لا تكون أكرم على الطبيعة ، منها على الإنسان ! . .
فمن يؤلف بين النور والظلام ، مع ما هما عليه من تناقض ،
لا يعجزه أن يجمع بين روحين متجانسين ، بل جزءى روح
لا يكمل أحدهما إلا بقسيمه ! . . هند هى روحى ، هى
حياتى ، هى كلى ، ولا أعلم ماذا أحب فيها ! . . إننى أحبها ،
كلاً ، لا تجزئة فيه ! فلذلك أريدها ، كلاً ، يمتزج بكليتى
فلا نعترف بتعدد ، ولا تجزئة ! . . هل تكونين لى ، يا هند !
بكليتك ، كما أصبحت لك ، بكليتى ؟ ! . . هل نهنأ معاً
فى حياة مشتركة ، لا تزول ، ولو زالت السموات والأرضين ؟ !

وما بلغت اندفاعات خواطره هذا الحد ، حتى تراءت له
هند ، تنزلق على أشعة النور ، حتى تصل إلى أرض الحرج
بين الأشجار ، تتأمل فى تساوق الظلال مع نور البدر ، ثم
تنظر إليه ، وبقوة سحرية وجد نفسه بجانبها ! . . وفيما هو يهم
بالركوع أمامها ، ليستغيث بها ، منها . . . رفعته بيدها وهى
تقول : ما أذل الحب الصادق حبيباً ، ولا رضى بأن تلحق به
أية إهانة ! . . فاحتفظ بإبائك ، وحافظ على كرامتك ، فالحب
الصيح إباء وكرامة وتحرر ! . . .

وفيما هو يحاول تقبيل يدها ، فاجأهما السحاب ، وحجب

البدر ، فلا نور ولا ظلال ، ولا بياض ولا اخضرار ! فأخذ يفتش عن هند ، فإذا هو أمام النافذة، منقبضاً مشدوها ، يؤلمه فراق الحبيب ، ولو شبحاً ، فأخذ يقول : إذا كان الأثير عذيراً ، تتهادى فيه الرحمة ، فالسحاب عذول قاس ، لا يرحم ولا يشفق ! . . ثم التفت إلى مكان البدر ، وراء السحاب ، وناجاه بقوله : رأيتها فيك ، وكنت ، ولا تزال ، ملجأ المحبين ! وإن روحها الجميلة ، كلها ، كانت تنعكس فى عيونها الشهلاء وقد أصبحت رمزاً لتلك العيون ! . . .

٣

فى عالم الأحلام

يخطئ من ينكر على الأحلام تأثيرها فى تفاعلات الحياة ، ولا سيما فى مراحل الشباب . فهى ، سواء أكانت أحلام يقظة أم أحلام منام ، تعبر عن حالات ، تكون نتيجة لانفعالات النفس وتفاعلاتها . وإنها ، على كل حال ، تعبير ، قد يؤول ، إذا انتقلت صوره المتتالية لوعى الإنسان فى يقظته . وقد لا يحتمل التأويل ، إذا ما التبست صوره واختلطت ، فكانت أضغاث أحلام . ولا سبيل لتأويل حلم ، غابت صوره عن وعى رائيه . والتعبير فى الحلم هو تعبير رمزى ، ولذلك احتاج إلى التأويل . وحلم اليقظة ، على ما رأينا ، فى تصورات هند وقيس يكون عادة أوضح من أحلام المنام . وإذا ما لازم هذه شىء من الوضوح ، فلاتصالها بتلك ، فى حالة نشاط للفؤاد ، يبرز فيه الكامن ، بشكل يقرب كثيراً من الوضوح . والرمزية فى الأحلام ، قد تبعدها عن الوهم ، وإن اشترك فى تكوين صورها الخيال . والوهم ، هو بوجوده ، الحد الفاصل بين أضغاث الأحلام ، وبين الأحلام التى تتصل بواقع الحياة ، وبتفاعلاتها

فليس كل خفى وهماً ، وليس كل واضح حقيقة . والوعى ، إنما هو فى التمييز بين حقائق الأشياء ووهمها . فى الأحلام ، إذن حقائق ، قد يثيرها الحدس ، فتتصل بمستقبل الحياة ، تنبؤاً ، قد يخطىء ، وقد يصيب . وهذا ما يبتلى به المحبون ، حتى إنهم ليتعلقون بالأحلام ، تعلقاً غريباً ، وقد يؤمنون بها، إيماناً شاذا ، يتجاوز المعقول . ولا غرابة ، فانفعالات الحب ، إذا ما انحرفت ، تتصل بالأوهام ، فيجمح بها الخيال . ولعلنا ندرك شيئاً عن صلة الأحلام بواقع الحياة ، وبتفاعلها معها ، إذا ما قصصنا حلمى هند وقيس ، فى نومهما ، فى تلك الليلة ، بعد أحلام فى اليقظة ، قد قصصناها ، فيما تقدم .

فهند لم تستسلم ، بسهولة ، لبواعث النوم ، بعد أن تركت الشرفة لانحجاب نور القمر . وقد كان سخطها على السحاب ، ذلك العذول السمج ، يصارع خوفها على قيس ، يتخبط فى عرض البحر ، ويصارع أمواجه ! وما زالت تتقلب ، على فراشها ، صريعة تجاذب عنيف ، بين ضغط النعاس ، وبين مقاومة الأرق . وكل منهما يتخذها ميدانا لصراعه فى التغلب على خصمه العنيد ! وكانت الغلبة ، لسلطان النوم ، أخيراً ، لما أصاب أعصاب هنداً من إعياء ، بلغ حد الإجهاد ! . . .

استسلمت هند لسلطان النوم ! ومن يستسلم لسلطان

النوم ، ولاسيما إذا ما استسلم قهراً ، يستسلم ، حكماً ، لأحلامه سواء أكانت أضغاثاً ، أم وقائع للذات ، فى داخل الذات ، بسبب بواعث ، تستثير كوامن الفؤاد ! . . فهى حياة ثانية فى عالم آخر ، لا يتجاوز حدود الذات ، ولكن يمتد ، فى تصوراته ، إلى ما وراءها ، وأمامها ، وسائر جوانبها . فهى تصورات تكتنف الذات ، فتتصل بواقعها . . وقد تمتد لمستقبلها ، كما قلنا ، تنبؤاً مفترضاً . . . ربما كان أكثر صفاء فى بواعثه ، من تنبؤ اليقظ ، عند ما يفكر فى قضاياه وفى مشاكل غيره ! . . فهى محاكمة للروح ، قد تتحقق نتائج رؤاها ، فى واقعها اليقظ ، وقد تذهب بها رياح اليقظة ، كما تذهب وقائع الحقائق ، بما يجمح به الخيال ، من رؤى وأمان وآمال ! . .

تسلسلت الرؤى ، فى نوم هند ، كما يفرض أنها تتسلسل فى نوم كل نائم . ولكنها لم تع ، حسب طبيعة الحياة ، فى النائمين ، إلا للرؤيا الأخيرة ، وقد استيقظت عندها ! . .

رأت هند فيما يراه النائم ، أنها لا تزال على الشرفة ، تراقب قيساً يتخبط فى هذا البحر الصاخب ، ويعارك أمواجه المتعالية لهبوب عاصفة هوجاء ، هيجت كوامنه ! فلم يعد ذلك البحر الهادئ ، على ما عهدته فى حلم اليقظة ، وبوعيها ! . . ما الذى

أرسل هذه العاصفة ، ودفعها إلى استثارة هذا الخضم الساكن ، فاضطربت أمواجه ، وهاج وماج؟! .. لعله عذولها السحاب ، وهو إنما حجب عنها نور القمر ، ليحجب معالم قيس ، ويعمل على الفتك به ! . . كلا ! لن تستطيع ، أيها العذول الوقح ، أن تقضى على الحبيب ، وأنا على قيد الحياة ! . . وألقت بنفسها من الشرفة ، فإذا هى فى زورق ، موثقة حباله ، فى فجوات صخر مرتفع ، فقطعت بيدها تلك الحبال الثخينة ، المشبعة بمياه البحر ، بقدرة عجيبة ، لا يبعثها فى الإنسان سوى الحب ! . . الحب الصادق المخلص ، مانح القوى ، والقدرات ، وموجد العجائب والمعجزات ، فى اليقظة ، وفى المنام ! . . وفى الأفراد ، وفى الأمم ! . . .

أخذت هند تجذف ، دافعة الزورق بمجذافيه ، وبساعديها وهمّها ، وبحبها وقلبها . . . وما زالت تصارعها الأمواج ، ترتفع بالزورق وتنزل ، وتعلو به وتنخفض ، بسرعة عجيبة ، علها تحطمه ، أو تلقى عنه هنداً ! . . فما نالت الأمواج مأرباً ! وظلت هند تصادم البحر ، وتكافحه ! وخوفها على حبيبها يشدد من عزيمتها ، ويرفع همتها ، ويبعث فى كيانها القوى ، حتى بلغت ميدان كفاحه فى عرض البحر ، فوجدت قيساً على آخر رمق ! . . فألقت بنفسها عليه ، ورفعته إلى الزورق !.

وإنها لا تدرى كيف تركت الزورق ، ولا كيف عادت بحبيبها إليه ! .. فللحب عجائب ، لا تدركها العقول !.. وما زالت تعارك ذلك الخضم المائج ، فى عودتها ، وقد زادها وجود الحبيب قوة واقتداراً ، تتحدى معهما قوى الدهر ، حتى وصلت إلى الشاطئ الأمن ! . . وهناك أخذت تعالجه ، حتى استيقظ من غيبوبته ، وفتح عينيه ، فشع منهما نور الأمل ، مستبشراً ، فصرخ قائلا : أنقذتنى من الموت ، فشكراً لك يا آنستى .. بل يا حياتى ! . . أنا لك فكونى لى ! . إنلك روحى ! . . وأنت وحدك ، وجودى وأملى ! . . يا حياتى ! . .

وما سمعته يردد كلمات : أنت أملى وروحى ، ويا حياتى . . . حتى غابت عن الوجود ! وفى غيبوبتها استيقظت ، من منام أرهقها ، وأحيا فى نفسها ميت الأمل ! . . . وكانت الابتسامة تغمر شفتيها ، وعينيها ، ووجهها ، وتهز كل كيانها.. إنها أنقذت قيساً ، وهو الحبيب وهو الأمل ! . . ولكن هل تتحقق الأحلام ؟ ! . . وفى سنوح هذا الخاطر ، تحولت الابتسامة عبوساً ، بدت معه أعراض التعب والإعياء . . .

أما قيس فقد قهره سلطان النوم ، كما قهر هنداً ، فى تلك اللحظة ، بعد أرق محبب ، كان يتمثل به شبح الحبيب ! وما انتقل لعالم المنام ، وهو من عوالم الفؤاد ، حتى دهمته

الأحلام ، وكانت كلها غامضة ، إلا ذلك الحلم المفجع ، وهو الحلم الأخير الذى استفاق عند فاجعته ! وقد حاول أن يعود لنومه ، ليستكمل ، على زعمه الرؤيا ، علها تنتهى إلى خير مما انتهت إليه ، ولكن ! . . . هل تجد كل أمنية لدى الحياة جواباً ؟ ! . . وفى تمنى المستحيل يتجلى الجهل والذهول ! . . .

رأى قيس فيما يراه النائمون ، أن البدر لا يزال بازغاً ، يرسل أشعته الفضية على الكون . وأنه هو لا يزال ممسكاً بيد هند ، يحاول تقبيلها ! .. ولكن هنداً رفعت يدها بلطف قائلة : لا تستعجل الأمور ، يا قيس ، فى العجلة الندامة ! . . فتراجع قيس ، منكسراً مضطرباً ، يسود نفسه القلق ... ثم عرض له خاطر التخوف من غضب هند ، فأخذ يعتذر ، على استحياء : عفواً هند ، فلم أقصد الإساءة ! . . ويوجعنى ، فى قلبى ، ويؤلم نفسى أن تسيئى الظن بمن يخلص لك الود . . وال . . حب . . . قالها بتردد الخائف ، وأردفها حالا بقوله : والاحترام ! . . .

فابتسمت هند ابتسامة الإشفاق والعطف والتدله ، وأجابت : بى مابك يا قيس ، ولكن ! ... ليس من الجائز أن نستبق الحوادث ! فمن عجل بالأمر ، قبل أوانه ، عوقب بحرمانه ! . .

دوخت قيساً عبارة هند : «بى ما بك» ، وغيبته عن ذاته ، وعن كل موجود ، إلا هى ، فوجم برهة ، ولم يعد قادراً على

الكلام ، ليعبر عما فى نفسه ، حتى فكت هند عقدة لسانه بقولها : مالك تخشى الحب ، فتقف عند مظاهر الجسد ، فى تعبيرك عن حالاته ؟ ! . . فأسرع بالدفاع عن نفسه قائلا : مهلا هند ! لا تقسى على ! . . فلا يقف عند مظاهر الجسد فى تعبيره عن حبه ، إلا الجبان الدنىء الفسل! وإن حبي أعمق مما قد تظنين ، فى تأويل حركتى هذه ! . . إننى أحبك حب كل لكل ، وهل الكل سوى الجسد والروح معاً ؟ ! . . وإلا فما معنى الزواج الذى ينتهى إليه كل حب صحيح ؟ ! . . .

اصطبغ وجه هند بحمرة الحياء والخفر ، وكأنها قد ندمت على ما تسرعت به من التصريح عمّا فى فؤادها من حب ، وجوى ! . . فوجدت لنفسها مخرجاً فى التعليل التالى : أحسنت بقرنك فكرة الزواج ، إلى تصورك الحب حب كل لكل ، وأن الكل جسد وروح . . وأزيدك أن الزواج هو ، فى الحب الصحيح الصادق ، امتلاك كل لكل ، امتلاكاً شرعياً متبادلا . فلا يصح ذلك الامتلاك المتبادل ، ولا سيما فيما له علاقة بالجسد ، قبل أن يتم عقد الزواج ، وهو يعنى شركة فى الحياة . ولذا اعتبره علماء الاجتماع الشكل الاجتماعى للحب الصحيح . وإذا كان إنفاذ معاملات أى شركة ، لا يصح ولا يجوز ، إلا بعد عقد تلك الشركة عقداً شرعياً ، فإن

شركة الزواج أولى بأن تتقيد بهذا الشرط الأساسى ، لتسلم حياة الزوجين من المآسى والفواجع ! . .

ولكن ، ألا يسبق الحب الزواج ، يا هند ؟ . . وإلا فكيف يتعارف الحبيبان ؟ . . ويتآلف الجنسان ، لتكوين البيت ، وتأليف العائلة ؟ ! . . فابتسمت هند ، وقالت : ينشأ الحب الصحيح فى النفس ، أولا ، وينمو فى خفقان القلب وهزات الروح . . ثم يستكمل نموه جسدياً . . . وعندئذ يجب أن يتم الزواج . . . ولا يمكن لحب ، ينمو هكذا ، نمواً إنسانياً طبيعياً ، أن يعرض كرامة أى من الحبيبين للهوان والأذى ! . . فحب الروح ، وقد تكوّن فى الذات ، يحمى ذاته من دنس الميول الجسدية ورجسها . . فيضحى المحب الصادق بكل شىء فى سبيل شرف الحبيبة وكرامتها ! . . وكلاهما يغار على أن يظل الحب صافياً لا تشوبه شوائب الانزلاق ! . . . ودليلى على طبيعة هذا السلوك ، فى الإنسان ، أن المرأة لا تفكر فى الميول الجسدية الجنسية ، ولا تشعر بها ، إلا حين يفسدها الرجل ! . .

صمتت هند . . وصمت قيس ، يفكر ، ثم تراءى له أنه سألها : وما الفرق بين حب يبدأ نموه فى الروح وحب يبدأ نموه فى الجسد ؟ ! . . فأجابته بقولها : لا تقل حبا

إذا ما بدأ الانجذاب جسدياً ، فإن هذا هو الهوس ، وهو حب مزيف[١] ، يطرد إمكان نمو الحب الصحيح ، فيسهل فيه على مدعى الحب ترك من يهواه . . ومن هنا تنشأ الفواجع ، والمخازى ، فى المجتمعات ! . . ويا ويل مجتمع ينهار فيه عفاف فتياته ، بجهلهن ، أو بإغراء فتيانه ! . . إنه مجتمع منهار ساقط ، لايصلح لغير الذل ، ولا يكون جديراً بغير الاستعباد ! . . فالحب الطبيعى الصادق ، فى جميع أشكاله ، هو سر عظمة الأمم ، وباعث أمجادها ! . . .

لم تتراءَ لقيس قدرته على امتلاك هذا الكنز العظيم ، حتى أخذته نشوة الظفر . . . وفى خشيته من فقدان هذا الكنز ، وارتيابه بتطورات الحياة ، أراد أن يثبت ظفره ، ويؤكده بوعد صريح ، فناجى الحبيبة : أو تحبينى يا هند ؟ . . . فكانت نظرة الإيجاب ، فى ذوات الخفر ! . . وهل تعاهدينى على الزواج ، فتكونين لى ، كلا لكل ، وأكون لك ، كلا لكل ، وإلى الأبد ! . . .

فأجابته ، أعاهدك على أن لا أكون لغيرك ، أبداً ! . . . فهاله الجواب ، وبعث فى نفسه الشكوك ، وأخذ يرتجف ويرتعش ، وأراد أن يستزيد جوابها وضوحاً ، فإذا يد جبارة

---

(١) «الحياة والشباب» ، ص ١٩١ ، الطبعة الثانية .

تمتد فتنتزع هنداً ، من جانبه ، بقوة قدير ! . . لم يدرك أين ذهبت اليد بهند ، فأخذ يركض فى كل جهة ، وهو يصرخ معولا : هند ! هند ! . . فلم يجبه سوى الصدى . وعلى رجعه استفاق ، وكأنه لا يزال يصرخ مردداً : هند ! . . هند ! . . أين أنت يا منى القلب ! . . .

٤

بعد الأحلام ! . . .

فى دور البلوغ ، يتخذ النمو اتجاهاً جديداً ، هو التمايز . ويستمر هذا الاتجاه إلى انتهاء أدوار الشباب . فيستقر كل فرد ، فتاة كان أم فتى ، راشداً متميزاً عن سائر الناس ، فى ميزات عدة ، تختلف حسب أجواء النمو ، ومتفقاً معهم فى سائر الصفات ، حسب أوضاع المجتمع . وفى استكمال هذا النمو طبيعته ، يتحقق تكوّن الأمة تكوناً منسجماً مع النظرية القائلة : « الأمة وحدة فى الاختلاف » . وتحيق الأخطار بالمجتمعات ، وبالأمم ، فى هيئاتها ، وكياناتها ، وأفرادها ، إذا ما قدر للنمو الجسمى ، بسبب أوضاع المجتمع وجهله ، أن يسبق النمو الذهنى ، فى الشباب . ففى الغلو بالاهتمام بالنمو الجسمى ، مع إهمال النمو الذهنى والإدراك الذاتى ، يفسد الشباب . ولا يمكن أن يتحقق التوازن بين النموين ، الجسمى والذهنى ، إلا بوعى الشباب لذاته ، فى تأملاته الذاتية ، منطوياً على ذاته ، ليكتشفها .

ووعى الشباب لذاته ، فى انطوائه وتأملاته ، هو عامل استقطاب ، يحقق به ما يرغب فيه ، فى أعماق ذاته ، من توحيد ما يكتشف فيها من إغراآت وإمكانيات متعاكسة ! فلا يريد أن يحذف منها أى إغراء أو إمكان لئلا تتحقق ذاته ، أو أناه ، ناقصة ! . . وهو الراغب فيها كاملة ، لا يختل فيها ، فى تناقضاتها ، ولو ظاهرياً ، أى اتزان ! . . لذلك ترى الشباب الواعى يميل للانفراد والعزلة ، متحفظاً من الحياة الخارجية ، لئلا يصبح أداة انتهاز للوصوليين ! . . فهؤلاء يشغلونه ، بما هو خارج ذاته ، ويفقدونه وعيه ، أو يقفون دون تحقيق هذا الوعى فى نفسه . يريدونه لهم ، ولمآربهم ، فلا يتركون له مجالا للتأمل والتفكير . وإنما يعملون على استفزازه وإثارة انفعالاته ، بسحر الألفاظ ، وبفتنة المظاهر ، وسراب الآمال ، بالضرب على أوتار أعصاب الحس ، فيشلون بذلك أعصاب الحركة ، وهذه وحدها القادرة على تكوين رجال الأعمال ونسائها ، فى حين تكوّن تلك القوالين الثرثارين ، من أدعياء الأنوثة والرجولة فى الناس ! . . فإذا ما أثارت أعصاب الحركة أعصاب الحس ، وأشرفت على نشاطها ، بتفكير واقعى عملى ، تكوّن الإنسان المتزن المتكامل ، وهو إنسان الحكمة والرصانة والإنتاج ! . . وبه تتقدم الأمم ! . . .

وقيس كاد يفسد، ويضيع ذاته ، لولا أن تداركه الحب الصادق بعنايته ! . . والحب الصادق الصحيح إنما يكون ، فى نشاطه ، وثبة نحو المستقبل ، فلا يأبه للحاضر وشهواته ! واتجاهاً نحو المثل العليا ، يستقيم ، فلا يلتوى ، ولا ينحرف . . . والحب خير مثير لوعى الشباب ، العامل الفاعل فى استقطاب الذات .

لم يكن قيس ليتأمل فى ذاته ! ولم يكن ليستطيع الانطواء على نفسه ! . . لأن مستغلى الشباب استغلوه فيما هو خارج عن ذاته ، من ألفاظ تعبر عن مبادئ ، لا يدرك كنهها ، ولكنه يؤخذ بسحرها ، لكثرة ما حُشِي بها ذهنه ، حشواً . . فى البيت ، وفى الشارع ، وفى مناهج المدارس التقليدية ، وامتحاناتها ! . . فهى فكرات ، سبقت نموه ، فكانت أداة استغلال رخيصة ، لغيره ، لأنها لم تكن إنتاج حرث نفسى صحيح ! . . .

تأخر وعى قيس ، وقد أتم الثالثة والعشرين من عمره . . . وما كان ليعود لذاته ، فيعيها ، لولا أن وجدته فتاته . . . قبل فوات الأوان ! فأثارت كوامن الوعى ، فى أعماق فؤاده ! . . وكثيراً ما يتأخر الوعى ، فى الفتيان ، ويندر تأخره فى الفتيات ! فقدر لهن أن يكن هن الموجهات المرشدات ، وأن يقفن ، بفعل

عبقرية الجنس ، دون انتشار جراثيم بواعث الإفساد ! . . .
وقد حبتهن الحياة بكل وسائل الإنقاذ ! . . ولكن . . إذا
ما قضت أوضاع المجتمع ، بانحراف الفتاة ، انحرفت عبقرية
الجنس فيها ، واشتد الفساد والوبال ! . . شأن كل مبدأ سام
ينحرف عن حقيقته ! . . فيشتد فساد المجتمع ! . . .
بمن هيأتها الحياة لإصلاحه ! . .

فلا غرابة ، وقد وجد قيس ، فى نفسه ، آثار الحب
المنقذة ، المحررة ، أن يتعلق ، بمن أحب ، تعلق المريض
بطبيبه ! فهو لم يكد يستيقظ ، صباح ليلة الأحلام ، حتى
أخذته الرعدة ، خوفاً على ذلك الحبيب ، وقد انتزعته تلك
اليد المجهولة ! . . .

لم يتناول طعاماً ! بل أسرع فى اكتساء ملابسه ، وهرول
إلى الجامعة . آملا أن يجد هنداً ، على عادتها ، صباح كل
يوم مدرسى ، على ذلك المقعد ، تظلله شجرة الصنوبر ،
تفكر ، وتتأمل ، بانتظار بدء الدروس ! وكثيراً ما كانت
تبكر ساعة قبل موعد العمل المدرسى ، لتتمتع منفردة ، فى
تأملاتها ! إن مقعدها الطويل ، يطل على مناظر فاتنة ، منوعة ،
من حرج ، وبحر ، وملاعب ، وغيرها . وما كان يؤذيها سوى
أن يشاركها فى مقعدها هذا ، فى ذلك الوقت الهادئ ، ثقيلة

أو ثقيل ، من الرفاق ! . . فى أى شىء كانت تفكر هند ! . . إنه لسر يلازمها منذ دخلت الجامعة ! . . وسنعلم نبأه بعد حين .

لم يجد قيس هنداً ، فى مكانها ، ولم تكن لتتخلف عن التبكير إليه يوماً ! . . فضاع صوابه ! . . وأخذ يعد الثوانى ، والدقائق ، وهو يبعد عن المقعد ، ويقترب ، ولا يستطيع الجلوس عليه ، أو على غيره ! . . والخبثاء من الرفاق ، يفسرون ويتأولون ! . . ولا يجرؤ أحد منهم ، أن يتقدم إليه بحديث ، أو بسلام ، للاضطراب البادى على محياه ، وحركاته ! . . وهو من يعرفون فى حدته وشراسته ! . . ولو اقتربوا لأدهشهم ، ذلك الحمل ، بوداعته ، ورصانته ! . . ولأدرك الشباب ، فتياته وفتيانه ، فعل سحر الحب الصحيح فى النفوس ! . . . وعلى كل فإنهم سيعملون ! . . .

مرت الساعات كلها ، إلى الظهر ، ولم تأت هند ! . . ولم يكن ليجرؤ على سؤال أحد عنها ! لا لخوفه من الناس ، فإنه ما كان ليأبه لما يقوله الناس ، ما دام يعبر عن حالات ذاته ، أو يتصرف حسب أهدافه ! . . ولا يزال ! . . ولكن لخوفه على سمعة هند ، وقد أصبح يغار عليها ، أكثر مما يغار على نفسه . فقد رفعها الحب ، فى نفسه ، إلى مستوى المعصومات من القديسات ، ولم يعد يتمنى لها سوى الازدياد فى السمو ،

والعفة والطهارة ! . . غلّت ذاتها ، فى ذاته ، وأصبح يتألم لما قد يؤلمها ، ولو توهما ويفرح لما يظن فيه فرحها . . . ولا يألو جهداً فى تحقيق مسراتها ! . . لا يهمه أن تكون على علم بذلك أو لا تكون ! . . ويكفيه أنه يرتاح لحالته هذه، وقد أصبحت من أنجع بواعث مسراته ، ولا يتمنى لحالته هذه سوى شىء واحد، هو أن ترضاه هند شريكاً لحياتها . . . إذ يرى فى تحقيق هذه الأمنية ، استكمال حياته ! . .

احتار قيس : أين يذهب؟ . . ولكنه ، على غير وعى منه ، وجد نفسه فى بيته ، أمام أمه ، وهى تخفف من ملابس الزيارة ، لتستبدل بها ملابس البيت . وما رأته حتى سألته : لم تتناول طعام الصباح اليوم ! يا حبيبى ! . . فأجابها ، وقد أخذ يقبل يديها باحترام البنوة ، وتقبله بحنان الأمومة : أسرعت لموعد ، خفت أن يفوتنى ! . . فابتسمت ابتسامة من لا تخفى عليها مواعيد الشباب ،عندما تتفتح ، فى نفوسهم ، زهرة الحب ، وقالت : أرجو أن لا يكون من المواعيد الخطرة ! فتنهد قيس ، وقال : ما زلت تحذرينى من المواعيد الخطرة ، وقد كدت أقع فى شركها ، لولا أن يسرت لى العناية الإلهية من أنقذنى منها ! كنت أعلمك عن كل شىء ، لأنك أم تفتح لابنها ، قلبها ودماغها ، وتوسع له صدرها الفسيح !

وكانت أم قيس مثقفة ، تدرك معانى الحياة ، وتتفهم ماتتميز به أدوار الشباب من أحوال . فاستطاعت بفطنتها ، وحكمتها ، فى وثبات عبقرية الجنس ، تمتزج بعاطفة الأمومة ، أن تجعل من نفسها أمينة سره ، جديرة بثقة ابنها الشاب الطائش ! وقد كان لتوجيهاتها الهادئة أثر فعال فى إقالته من عثرات وعثرات ! . ومن تنبيهه لأخطار وأخطار ! . . ولكنها لم تكن تعلم بهذا الشرك الذى حدثها عنه ، وداخلها الحذر ممن أنقذه منه ! . . لعل المنقذة تكون هى نفسها ، شركاً جديداً ، يعرض ابنها للمشاكل والمخاوف ! . . هلع قلب الأم ، وهل يهلع قلب الأم ، وتضطرب أعصابها ، فى حالات هى أشد من حالات تخوفها على ابنها ؟ ! لذلك سألته ، وهى تحاول امتلاك أعصابها : ما هذا الشرك ، يا حبيبى ! . . ومن أنقذك منه ؟ فأجابها : عفواً ، أماه ! . . فقد أخفيت عنك هيامى بفاتنة . . ثم علمت عنها ما يخيف . فجرت حادثة شعرت معها بمعنى الحب الصحيح ، وأصبحت أدرك الفرق بين هوس ، يدفع لتلبية شهوات الجسد ! وبين حب ، يرفع الذات ، ولا يحرمها ملذات الروح ، والجسد معاً . والذى ثبت جنانى أننى أصبحت أكثر إدراكاً لمعانى كلماتك ، فى وصاياك الحكيمة ! . . فابتدرته الأم : ولكن ، ألا تخشى أن يكون الشرك ، فى الثانية ، أحكم ارتكازاً

من الأولى ؟ . . قل لى ، بحق حبى لك : من هى المنقذة ؟ ! . .
فأجابها : لا أكتمك شيئاً ، يا أماه ، إنها هند ! . . وقص
عليها خبره ، دون أن يخفى عنها أدق مايعتلج فى صدره من خواطر !

سمعت الأم حديث ابنها ، بانتباه واهتمام . ولم تكن تخفى
سرورها مما تسمع ! وما انتهى من حديثه حتى تنهدت تنهد
من يشعر أنه قد أفرج عنه ، وقالت : هنيئاً لك إن رضيتك
هند شريكاً لحياتها ! . . عيونى هند ! . . . كنت فى
زيارة أمها ، وأنا آتية من عندها الآن . وهند فى فراشها ،
لوعكة أصابتها . وقد علل الطبيب تلك الوعكة بأرق أصابها الليلة
الماضية ، لسوء الهضم ! . . وأشار عليها بالاستراحة يومين ،
أو ثلاثة ! . . ولكن قل لى : أكان حبك لهند مفاجأة ،
أم كانت له ممهدات ! . . فأجابها قيس بقوله : حبذا
لو كنت مستنطق البلد ! . . أو طبيبته ! . . إذن لاستطعت
أن تكشفى ببراعة استجوابك ، أسرار المجرمين ، أو المرضى ! . .
إنى ظننت ، أول ما جذبت لهند ، أنها المفاجأة ! . . ولكننى
أتبين تدريجياً ، فى تأملاتى ، أنه حب ، ما زال يختمر ، فى
نفسى ، منذ عرفتها ! . . ولكن إباءها ، وقد كنت أظنه
صلفاً وكبراً ، واحتقارى للمرأة ، بعد أن اختبرت فى بعض
الفتيات ما اختبرت ، كانا فى مقدمة أسباب كبته فى فؤادى ؛

وما كنت أظن أنه سيأتى يوم أحب فيه فتاة ، هذا الحب الجارف ! . . إنه حب تملك قلبى وعقلى ، لا تملك إسفاف وشهوات . . وإنما هو تملك، تسمو معه ذاتى ! . . . وتسمو معه فى نفسى ، ذات من أحب، فلا أتصورها إلا فى أروع مجالى الطهر ، والعفاف ، والخفر . . ولا أريدها إلا كذلك ! ولكن ! . . أماه ! . . بدأت أتخوف ، من أرقها ، بقدر خوفى عليها من المرض ! . . أيكون لها حبيب يزاحمنى ؟ ! . . إن كان هذا فهلا كى محقق ! . . لم أعد أطيق عنها صبراً ! . . إنها روحى وحياتى ومناى وأملى ! . . فكيف يستطيع الإنسان أن يحيا ، بلا روح ولا حياة ؟ ! . . وهل يتسنى له أن يبقى، من دون أمل ، ولا رجاء ؟ ! . . عنايتك اللهم ! . . وعونك يا أماه ! . . وترقرقت عينا قيس بالدموع ، وما كان قبلها يعرف البكاء ! . . والبكاء فى حالة كهذه دليل على رقة الروح ، وصفاء الفؤاد ! فما بال الذئب يكتسى الريش ، ويهدر كالحمام .

أشفقت الأم على ولدها ، يعود لجزع الأطفال ، يبكون إذا مافقدوا شيئاً يتوهمون امتلاكه . . وأخذت تسليه ، وتشجعه بقولها : كن جلداً ، ولا تستسلم لتوهم السهولة فى الحصول على الرغائب ، ولاسيما فى الحب ! . . فلابد من عثرات ،وعراقيل،

تعترض الطريق : وليست الشجاعة فى البكاء أمامها . . بل باجتيازها اجتياز الظافرين ، بعد جهود وتضحيات وصبر . . فكيف بلك ، وأنت تتوهمها ، ولم تعثر بها قدملك بعد ! . . إن توهم العثرات والعراقيل أشد وطأة على النفوس من تحققها ، فمن أين جاءك أنها تحب غيرك ؟ ! . . أليس هو الوهم يصور لك ما يزعجك ؟ ! . . كن أكبر من وهملك ، واجعل الواقع مصدراً لتصوراتك ، تنج من كثير من الأحزان والشرور ! فالحياة للواقعيين ، وليست لمن تغزو نفوسهم الأوهام ، فيما يتصورون ! . . .

هدأت نفس قيس ، بفعل كلمات أمه فى نفسه ، ثم طلب إليها أن تهديه سواء السبيل ! . . ففكرت الأم ، مليا ، ثم قالت : سبيل سير الحب ، بينكما ، يوضحه أول التقاء ! فلا بد من التقائك بها ، فى خروجها من الدار ، بعد الوعكة .. وستعلمنى عما يدور بينكما فيه من حديث ! . . . وعندئذ أهتدى للطريق المستقيم . . . ! احذر العجلة ، والرعونة والأوهام ! أسمعت قيس ؟ ! . .

٥

اللقاء ! . . .

مر على قيس يومان ، تجاذبته فيهما ، فى اضطراباته ، المتناقضات ! . . . لا يدرى كيف يدفع الوهم ! بل لا يعلم كيف يميز بين الوهم والواقع ، ولا بين الخيال والحقيقة ! يأمل ساعة وييأس أخرى ! ويمنى النفس حيناً ، ويقنط حيناً آخر ! فيا ويل المحبين إذا ما اشتبهت عليهم الأمور ! . . . فهو لا يستطيع زيارة هند، خشية من أذيتها ، إذا ما نمّت عنه عيناه أو شفتاه ، أو ما يعترى وجهه من انطلاق ، أو انكماش ! ... فهو لا يأمن على نفسه العثار ، والاضطراب ، فى حركاته وسكناته ! . . . وقد حذرته أمه مغبة الزيارة ! . . . وهو يشعر ، فى صميم ذاته ، أن عليه أن يعودها ! . . . أفلا تعتب عليه ؟ . . . وهل يستطيع تحمل عتابها ؟ . . . مسكين قيس ! أنه كان يدور حول بيتها ، كما يطوف المتعبد حول كعبته ! ... ولا يلبث أن يرتدع ، خوفاً من أن يسىء ظن الناس بها ! . . . مرحى بقيس ! . . . فهو الحريص على أن تظل جوهرته

سليمة ، حتى من الظنون والأوهام ! . . . ولا سيما أن أمه قد أخبرته أن أباها قاس عنيف ! . . .

ما أسعد قيس ! وقد أعلمته أمه ، فى اليوم الثالث ، من هذه الفترة أن هنداً ستخرج إلى الجامعة فى صباح الغد ، بعد أن أبلّت من وعكتها ! . . . وكانت الأم قد ذهبت لتعود هنداً ، فى هذا اليوم ، استجابة لإلحاح ابنها ، وتسكيناً لاضطراباته ! فما أهنأه بأم ، تساعده على تخطى طريق الحياة ! ! . . . سعيد من له مثل هذه الأم ! . . . وكاد قيس يجن من الفرح ، وقد أثنت أمه على استقبال هند لها ، وأخبرته عن حفاوتها بها ، حفاوة فيها من المعانى والمغازى ، ما يبعث الرجاء والأمل ! . . . والمحب ، كالغريق ، يحاول أن يتعلق ، ولو بخيط من هواء ! ... وفى غمرة هذا الفرح ، وقد استخفه ، سأل أمه عما إذا كانت قد حدثت هنداً عن حديثه ؟ ! . . . فابتسمت الأم وقالت : ما أصابلك ، يابنى ؟ . . . أفى زحمة الزائرات ، يجرؤ عاقل على إفشاء هذا الخبر ؟ ! . . ما بلك ، قيس ! . . . أنسيت ما قلته لك ، يا بنى : انتظر نتائج اللقاء ؟ . . . أنسيت . . . قيس ؟ ! لم ينس قيس ! ولكنها الرعونة . . . كثيراً ما تتغلب على المحبين ! ! . . .

بكرّ قيس فى ذهابه إلى الجامعة ، فى صباح نام على انتظاره ! . . . كان نومه هادئاً ، لم يعتوره قلق ، ولا أرق ! ولم يكن ذلك لما بعثه حديث أمه ، فى نفسه ، من أمل ، وحسب ! . . . بل إن الصراحة الصادقة ، وقد تبادلها مع أم حنون ، كانت له أماً وأباً ، بعد أن فقد أباه ، منذ سنتين ، قد أنقذته من هواجس الكبت المقلقة ، ومن أوهامه المؤرقة . . . والكبت آفة الشباب ، فى نمو الأنوثة أو الرجولة ، وفى تكونهما ! ؟ . . . الشباب صادق صريح متحفز ! . . . وإنما يفسده من يعوده الكذب والنفاق والانكماش ، فلايبقى له مجاله ، فى ضرورة انسجام نموه مع طبيعته . ويا ويل أمة ، تقتل شبابها ، بإفساد الشباب ! . . .

خرج قيس من داره ، فى ذلك الصباح ، بعد أن تناول طعامه ، وتبادل مع أمه قُبَل الحنان ! ولم يخْرج مستعجلا مستخفياً ، كما خرج منذ أيام . ولم يكن بحاجة للعجلة والاستخفاء ، ما دام كابوس الكبت ، قد زالت آثاره ، فى بيته ، وفى صلته بأم ، يجلها ويحترمها ، ويجد فى قربها التعزية والحنان ! فما أقبح الكبت ، يورث العقوق ! . . . وما أروع الصراحة ، تنتج البر والتعاطف ! ! . . . وما أعظم الحب ، ترعاه طبيعته ! . . .

اهتز قلب قيس، وكاد يطير بجناحيه إلى لقاء الحبيبة ، وهى جالسة على مقعدها ، تتأمل كعادتها ، وتفكر ، وعيناها متجهتان إلى البحر المنبسط أمامها ! . . . إنه البحر ، تنعكس على سطحه ، الآن ، أشعة الشمس ذاتها ، لا أشعة القمر المستعارة ! . . فشعرت أنها أصبحت أقرب لحقائق الواقع . . . فلم تكن لتغرق فى تخيلات أحلام اليقظة ، ولا فى غموض أحلام المنام ! . . . إنها تجاه الواقع ، فى حقائقه الساطعة أنوارها ، سطوع أنوار الشمس ! فالأنوار المستعارة تذهب بالمرء إلى عوالم الخيال والأحلام . . . والأنوار الأصيلة هى التى تبقيه فى واقعه ، وتنير سبيله ! . . .

إن هنداً كانت تفكر ، شأن كل فتاة نضجت ، فى اكتمال نمو الشباب فى ذاتها ، فى البيت الذى ستخرج إليه ، وتكوّن فيه عائلة، تستمد من روح المرأة فيه، وهى الزوجة الأم، سعادتها ! . . .هل تستطيع ، هى هند ، أن تكون تلك المرأة التى تحقق للبيت سعادته ؟ ! . . . وهل يتسنى لها ذلك بسوى قيس ؟ ! . . . اختاره قلبها ، بعد أن فكرت فى فتيان غيره ، فهل أصابت ، بسهام نظراتها ، وهى قد عبرت عن مكنون قلبها ، المرمى ؟ ! . . إنها لمهمة شاقة صعبة ، هى تلك المهمة التى ألقتها الحياة على الفتاة ، إذ أرادت لها أن تختار هى رفيقها

وشريكها ، فى الحياة ، ليكون زوجها ، بعد أن تتصور فيه فتى الأحلام ! ! ! . . ولكن البشر ، وهم فى مجتمعاتهم ، قد يقلبون الحقائق ، وقد يعكسون الآيات والعبر ، فيجعلون هذا الحق للفتى وحده ، ولا يعتبرون بالمآسى والفواجع ، تنتقم بها الحياة من جهلهم بنواميسها ، وتحديهم لها . . . فما أقسى الحياة ! . . . وما أشد ظلم البشر ! ! . . . فهم يظلمون أنفسهم ، ولا يعلمون ! . . بل هم ، فى دياجير ظلمهم ، يتيهون ويتكبرون . . . فيتيهون ويعمهون ! . . .

لم تدهش هند، وقد سمعت قيساً يحييها . . . فإنه لم يفارقها ، منذ انسحبت من جلسة ذلك الحديث . ولكنها فوجئت بترسمه فى تحيتها : صباحك سعيد ، أيتها الآنسة ! . . فتذكرت أن مناجاتها له كحبيب ، لم تكن إلا فى عالم الروح ، فخضعت للواقع ، وأجابته : أسعدت صباحاً ، أيها السيد ! . . وكان بودها أن يقول : صباحك سعيد، هند ! ! . . وأن تجيبه : أسعدت صباحاً، قيس ! . . ولم يكن يود هو إلا أن يحييها، لو استطاع بقوله : صباحك نور ، يا حبيبة القلب ! . . وأن تجيبه : ما أزهى صباحك ، يا حبيب الروح ! . . . فمتى يزول بينهما ذلك الترسم ، وقد أصبح سمجاً فى نظر كل منهما ؟ ! . . .

استأذن قيس هنداً فى الجلوس إلى جانبها ، على المقعد ،

متعللا بأن له معها حديثاً خاصاً . . . فأذنت له . . . ولكنه لم يكد يشعر بقربه إليها، حتى نسى كل ما كان هيأه ، فى خاطره ، من عبارات وكلام . . . فارتبك ، ولم يعد يعرف كيف يبدأ الحديث ؟ ! . . . فوقع فى خاطر هند أنه يريد عتابها على موقفها منه ، أمام رفاقه ، منذ أيام ، فوجدت مجالاً لأن تفتح له باب الحديث : ربما آذاك حديثى ، يا سيدى ، فأعتذر عن لهجتى تلك !! . . . فانطلق قيس ، بعد وجوم ، وقال : عفواً ، أيتها الآنسة ، فقد جئت شاكراً . . . لا شاكياً، ولا عاتباً ! . . .

هند : وعلامَ الشكر ، يا سيدى !

قيس : إنك قد أنقذتنى من وثنية ، ضاق بها صدرى ، وما كنت أشعر ، قبل كلماتك الحكيمة ، إننى كنت فعلاً من عبدة الأوثان ! . . . أشغَل بوثنيتى عن ذاتى ، فلا أتأمل فيها ، لأنضج تلك الفكرات المستعارة ، وقد امتلأت بها حوافظى ، وأصبحت أسير ألفاظها ، أصفق لها ، ولا أدرك حقيقة كنهها ! ! ... كنت أسير وراء أفراد ، تعودوا استغلال سذاجة الشعوب ، آملاً فيهم لنفسى الخير ! . . . فجعلتنى أدرك أنه لا ينال الخير من يعقد آماله على غير ذاته !

كنت أتوهم أنهم يسيرون بنا نحو المثل العليا ، التى تتفتح عليها نفوس الشباب ! فإذا أنا أدرك ، فى تأملاتى ، وقد أوحت بهذا كلماتك ، أنهم إنما يعملون لمآرب خاصة ، ويستهدفون المال والجاه ، والتنعم باستعباد الناس ، متخذين تلك المثل ، وألفاظها ، عصا سحرية ، يفتنوننا بها ، لنسير فى ركابهم ، ونصبح من أتباعهم ، فنحقق لهم ما يشتهون ! . . . وكثيراً ما تكون المآرب على نقيض تلك المثل ! . . . فمنذ سمعت كلماتك الحكيمة ، تفتحت عيناى ، وتبدل فى نظرى ، كل شىء ! شعرت بأننا فى شباب جديد ، وأن الشباب إطلالة جديدة على الحياة ! . . . ليس له أن يرى العالم ، بعيون ، كلّت عن الإبصار !... فعليه أن يرى العالم بعيونه هو ، على ما يقتضيه سير التقدم ، فى عصره ، لا بعيون المشعوذين المستغلين ، وهم يدفعونه إلى الوراء ! . . . فأصبحت أتقبل الحياة كلها ، وبكل كيانى ، بجد ورصانة وصفاء ، تاركاً كل ما يتصل ، بالاستهتار والسخرية والاستخفاف ، بأى سبب ! ! . . . أدركت أن الحياة جد ونشاط وجهاد. وأنها هكذا فى داخل الذات ،

لا فى خارجها . فبدأت أحترم ذاتى ، وأكره النفاق والمجاملات ! . . . أدركت أن العرب ، فى جميع أوطانهم ، ضحية الاستخفاف والسخرية ، والمجاملات والرعونة . . . وأننا بهذه الصفات ، وبجحودنا ذواتنا ، خسرنا فلسطين ، ونخشى أن نضيع غيرها ! ! . . . إننى أؤمن الآن بأن لا إنقاذ للعرب ، إلا بتحطيم الأوثان ، أوثان الفكر ، وأوثان الكلمات ، وأوثان الأفراد والهيئات ! . . . هكذا أنقذوا ، فى نهضتهم الأولى ، وهكذا ينقذون ، فيستعيدون النهضة ، ويحتلون مكانهم ، فى سلم الحياة ! . . . وقد وقر فى روعى ، فى تأملاتى الذاتية ، أن لكل أمة وسائلها فى التجدد . وهى وسائل خاصة بها ، ينبثق عن مجتمعاتها ، ويعجز عنه الأفراد ، مهما عظموا ! ! . . فالعظماء للإثارة ، يستغلهم الناس ، ولا يستغلون ! ! ؟ . . .

هند : (وقد أخذ منها الإعجاب ، إعجاب الحبيب بحبيبه ، وطربت لأثرها فى تبدل قيس) أحسنت . . . يا سيدى ، (وكادت تقول : قيس) وأراك قد سرت شوطاً بعيداً ، فى تأملاتك ! ! . . .

قيس : (وقد امتلأ غبطة لانتصاره الأول فى استثارة إعجاب

الحبيب) : وهل كان سيرى هذا إلا بفضل كلماتك يا...
حضرة الآنسة (وكاد يقول : يا هند ! . . .)

هند : إنك تغالى ، فالفضل لذكائك وإخلاصك واستعدادك فما أخطأت فيك فراستى ! وإنى لأرجو لك كل خير ! . . .

قالت ذلك وقد علت وجهها حمرة الخفر... فازدادت روعة فى جمالها ، وفتنة فى نضارتها... وكادت نظرات قيس المشدوهة ، تفشى سر نفسه ، لولا أنه تماسك . . .ولا أظن أن حاله قد خفيت على فطنة هند ! . . .وأتوهم القارئ يحدس بذلك معى .

قيس : (وقد تشجع) وقد كان لكلماتك فضل آخر ، إذ أنقذتنى من فاتنة ! . . .

هند : (وقد ثارت فى نفسها الغيرة ، عند سماعها اسم فاتنة ، يلفظها قيس ... ولعله إنما استطرد لذكرها للإثارة !) وما علاقة كلماتى بفاتنة ؟ . . . المسكينة ! ! . .

قيس : كادت فاتنة تغوينى ، وكدت أقع فى شركها ، كما وقع غيرى من الشباب ، على الرغم مما يعلمون ، وأعلم من سمعتها السيئة . ولكن أثر كلماتك الحكيمة ، فى

عودتي لداخل ذاتي ، متأملاً مفكراً ، جعلني أؤمن بأن شرف الشباب إنما يصونه الزواج ، الزواج الصحيح الصادق ! ! . . فأصبحت أفكر بالتي أكون جديراً بها ، وتكون جديرة بي ، لعقد شركة الحياة ! ! . . وأشكر العناية الإلهية أنني لم أغو فتاة . . . ولم تغوني فتاة ! وكل ما جربت ، إنما هي مداعبات ومغازلات بريئة . . . وقد لحظت ، كما لحظ بعض رفاقي ، من الشباب ، في جهل بعض الفتيات ، وفي ميوعتهن ، لجهلهن بالأخطار ، ما صرفنا عن فكرة الزواج . . . لأننا احتقرنا المرأة ، وأسأنا بها الظنون ! . . . ولكن تبين لي أنه لا يزال ، في الفتيات ، من هن جديرات بالثقة ، وبتحقيق سعادة البيت ! فعقدت النية على أن أشرك في حياتي فتاة الأحلام ! . . . .

هند : وهل اخترت فتاتك ؟

قيس : وهل يجوز أن أقول اخترت ، قبل أن أحظى منها بالقبول؟ فالاختيار للفتاة ، على ما أعتقد ! . . .

هند : تفكر بفتاة ، لم تحاول التفاهم معها بعد ! . . إنها ، إذن ، لا تزال فتاة أحلام ! . . . ثم ابتسمت ابتسامة من يغريه حب الاستطلاع ، وهي تحاول أن تخفي ما أثار الحديث

فى نفسها ، من كوامن ، وسألته قائلة : هل أستطيع معرفة اسمها ؟ . . على أن أساعدك ! . . .

قيس : (وقد كاد يطير فرحاً ، وقد بلغ بيت القصيد من كل هذا الحديث) ومن هو الجدير غيرك بمساعدتى ، وأنت منقذتى ، من الزئنية ، ومن شرك فاتنة ؟ ! . . ولكن أريد منك قبل أن أبوح باسمها ، أن تعدينى وعداً صادقاً بأنك تساعدينى عليها ، بكل إخلاص ! . . .

هند : لمَ هذا التأكد ، وقد وعدتك ! . . .

قيس : ذاك رجاء ! . . وأريد وعداً كريماً ، من كريمة ، أعترف لها بالجميل ، ما حييت ! . . .

هند : أعدك ، إن لم تكن بعيدة عنى ، لا أعرفها . . . أو بعيدة عن هذه الديار ! ! . . .

قيس : إنها تلك التى نزلت ، من عليائها ، على أشعة القمر ، لتلتقى بى فى الحرج ، أمام دارنا ! . . منذ ثلاث ليال . . .

هند : هى شبح خيالى ! ومن يستطيع مساعدتك عليه ؟ ! . .

قيس : إنها واقع ، لا خيال فيه ! . . وإنها روحى وحياتى ، قبلتنى ، أم لم تقبل ! . . . فأنا لها ، بكليتى ، ما حييت ! ! . . . إنها قريبة منك ، قرب ذاتك من

ذاتك ! . . . إنها التى أشعر ، بجانبها ، أننى أتسامى
على ذاتى ، فأصبحت ضرورة ملحة ، لاستكمال
كيانى ، كإنسان ! ! . . . إنها أنت ، يا هند ! ! . .
واسمحى لى أن أذكر اسمك مجرداً عما يقتضيه الترسم
من ألفاظ ! . . . هند ! إننى أصبحت لك ،
بكليتى ! . . . فهل أطمع أن تكونى لى ، كما أنا لك ،
كلاً ، لا تجزئة فيه . . . فنتعاون على مشاكل الحياة؟

هند : (صمتت واجمة ، على استحياء ! ! . . وهو صمت
القبول والإقرار من ذاوت الأخدار !)

قيس : هند ، إن لك من ثقافتك ، ورجاحة عقلك ، ما جرأنى
على البوح بمكنون صدرى ! . . . فهلا يدفعك على
البوح ، بما تضمرين ، ما تملكين من صفات ، أيتها
المنقذة الحبيبة ؟ ! . . . إنك أنقذتنى وحررتنى ، فهلا
تتحررين ؟ ! . . فتستكملين ، بصراحتك ، إنقاذك
لفتى كان ، لولا حبك ، من أشقى المستعبدين ، فى
وثنية عمياء ! . . . ومن أحط المسترذلين ، سخفاً
وطيشاً ! فاحمنى ، بحبك ، أيتها الحبيبة المنقذة ! ! . .
وارحمى من لم يعد تطيب له الحياة ، إلا بقربك ! ...
فوالله ، ما كنت أستطيع أن أعتقد إمكان اتحاد المثل

العليا مع الحياة ، لولا أنك بعثت فى نفسى عاطفة الحب الصحيح الطاهر ! فشعّت فى روحى أنواره ، فأدركت معانى الحياة ، فى مثلها وقيمها ! ! . . . إننى سرت شوطاً بعيداً ، على ما ذكرت ، يا هند ، بفضل حبك ! . . فهل تقطعين علىّ الطريق ؟ ! . . يا حياتى !

هند : إن التى تحقق فيك حلمها ، وقد أنقذتك ، فى تلك الليلة التى ذكرتها ، من براثن الأمواج ، فى هذا البحر ، وكان مائجاً هائجاً ، يكاد يبتلعك ! . . . لا تستطيع أن ترفض يدك ! . . . ثق ، قيس ، أننى لن أكون لغيرك ، ما حييت ! ! . . . (وعبرت عن ذاتها بلهجة المنفعل المأخوذ ! . . .)

تفتحت نفس قيس ، إذ استبشر ، واتسعت حتى شملت كل العوالم ! . . . ملأ البشر قلبه ، وأفعمت الغبطة نفسه ، فلم ينتبه لما فى قولها : لن أكون لغيرك ، من ألغاز ، سيحلها الزمن . وإنما شاقه أن تمتد سعادته إلى ما بعد الموت ، فقال ، مداعباً : ولن تكونى لغيرى فى العالم الآخر ! . . . فأجابته ، بدعابة مثل دعابته : من يكن لك فى الحياة ، لن ينفصل عنك ، بعد

الموت ، فى العالم الآخر ! . . .
ثم أخذ كل منهما يقص ما كابده فى تلك الليلة ، ليلة الأحلام ، وفى الليالى التى اكتنفتها ، قبلاً وبعداً ، منذ ذلك الحديث ! . . . ثم انتقل بهما الحديث إلى كشف أسرار كل منهما للآخر ، حتى تنكشف له حياة رفيقه ، بصراحة وصدق ، فلا يظهر له ، بعد الزواج ، من أحوال رفيقه ، ما لم يعلم به قبلا ، وهذا شرط أساسى من شروط الزواج الصحيح . وأحاديث المحبين ، فى تشعبها ، لا تنتهى فى جلسة واحدة ، لتنكشف حقيقة كل منهما للآخر ! . . . إلا أن هندا علمت من هذا الحديث ، وهو الأول ، أن أم قيس باعت قسما مما ورثه عن أبيه ، ليكمل تحصيله . وأن هذا القسم يعادل معظم حصته ! وأن إخوته الصغار ، وأختيه ، لا يزالون قاصرين . وأكدت له أن أباها غنى ، ولكنه مغامر ، يقامر ، لا ترتجى أن يترك لها ثروة . فلم تكن تلك الاعترافات إلا لتزيد تعلق كل منهما بالآخر . فالحب ، إذا ما كان صادقاً ، يتحمل كل وضع ، ولا يشغله ما فى خارج الذات من أعراض ! . . .

دهش الحبيبان ، وقد سمعا ساعة الجامعة تدق الثانية عشرة ! . . . فقد مضى على خلوتهما هذه ، منذ السابعة ، خمس ساعات ، غابا فى أثنائها ، عن كل شيء ! . . . ولم تستطع دقات الساعة ، على قوتها ، وتعددها ، وهى تدق كل ربع ساعة ، أن توقظهما من تلك الغيبوبة ، عن كل موجود ، غيرهما ، إلا فى دقاتها الأخيرة ! . . . شغلا بذاتيهما عن كل شيء آخر . . . ولكن أين الطلاّب ؟ . . . لم يزعجهما أحد فى هذه الساعات الخمس . . . ترُى ، أهى الرحمة ، فى ملاك الحب ، جعلته يعطف على هذا الحب النامى ، المنبعث عنه ، فنشر أجنحته حولهما ، فحجبتهما عن أعين الناظرين ؟ . . . أم أن الشباب ، فى الطالبات والطلاب ، والشباب وثبة ، كلها سماحة ونجدة ، رأى ، فى تهذيبه الفطرى ، أن لا يزعج الحب ، فى تناجى المحبين فيه ، فى خلوة صريحة ساذجة ، كهذه ؟ ! . . . فغضوا الطرف ، ومروا كراماً ؟ ! . . . أتنشر أخبار هذه الخلوة ، بين الناس ، فيتقولون ، أم تظل سرًّا مصوناً ؟ ! . . .

احتار الحبيبان فى تعليل هذا الوضع ، وأوجسا خيفة

من عواقبه ! . . . فى الناس ألسنة ، لا ينقصها
الطول ! . . . وفيهم نفوس دنيئة ، لا يلذ لها إلا
تهشيم الآخرين . ومنهم الجهلة الذين يسيئون الفهم
والتأويل ، ولا يحترمون الكرامة فى الإنسان ! . . . وفى
غمرة هذه الحيرة ، وهذا الاضطراب ، قهقهت هند
وقالت : قيس ! ما أشد سذاجتنا ! ما لنا لم نذكر أن
هذا اليوم هو يوم عطلة ، فى الجامعة ؟ ! . . .
فانتبه قيس ، وقد كان أكثر اضطراباً من هند ،
لغيرته على سمعتها ، وانبسطت أساريره ، وقال :
صدق من قال : إذا أراد الله شيئاً يسر أسبابه ! ...
وقد يسر لنا النسيان ، ولولاه لما اجتمعنا هنا ، فى هذه
الصبيحة المباركة ! . . . فأل خير ، يا حياتى ! . .

هند : فأل خـــير ! . . . إن شاء الله ! . .

قيس : وما هو الباعث على الشك والارتياب ، يا هند ! . . .
ألم نتفق على كل شىء ؟ . . .

قال ذلك باستغراب ودهشة ! ... فسألته هند : وأين تجد
الارتياب ؟ . . . فأوضح قيس : فى قولك إن شاء الله ،
وقد تعودنا أن نسمعها ممن يرتاب من العواقب ! . . .

هند : مهلاً ، قيس ! . . . لا تسرف فى التفاؤل ! . . .

ولا ترتب فى حبى لك ! . . . فهو حب ثابت ، لا يزول ولا يفنى ! . . . بل هو خالد فى عالمى الدنيا والآخرة ! . . . فحبى لك أكثر من وعد ، إنه أصبح هيأة نفسية ثابتة ، فى ذاتى ، ولن تتحول . . . ولكن لاضمان على الزمان ! فلابد من الحذر ... والاعتدال ! ...
قلت لك : لن أكون لغيرك ، فثق بقولى ، وكن مطمئناً ! ! . . كاطمئنانى إليك ، وثقتى بك ! ...
قلبان جمعهما الحب . . . وروحان اتحدتا به . . . لن يفرقهما سوى الموت ! ؟ ! . . . فنظر إليها قيس ، بتوله المتفانى ، فى حبه ، وقال : عفواً ، هند ! . . . فالمحب مولع بسوء الظن ! . . . فأجابته ، ونظراتها تنم عما فى الفؤاد من جوى : آفة الحب سوء الظن ، فارتدع عنه ! . . . فقال ، ولهيب القلب يتصاعد من عينيه : عفواً ، أيها الملاك الحبيب ... هفوة لن أعود إليها ... لن أعود . . . غفرانك ! ! . . . وفى نشوة الموله الظافر ، فتح قيس ذراعيه ، محاولاً أن يضمها إلى صدره ، وأن يطبع على فمها قبلة الحب ، حسب تقاليد هذا العصر ، فنفرت هند ، وقالت : ماذا أصابك ؟ أتريد أن نمثل حبنا دوراً سينمائياً ، قيس ؟ ! . . .

قيس : (وقد شدهته المفاجأة ، وحيرته) هند ! . . . وهل فى قبلة الحب إثم يقترف؟! . . . ما دام حبنا نقياً طاهراً على ما تعلمين ؟ ! . . . فهلا تزالين تسيئين الظن ، بحبيبك قيس ، وهو من يضحى بحياته ، محافظة على العفاف والطهر ، منذ تعلق بك قلبه ، يا ملاكى ، الطاهر ؟ ! . . . الأمين ! . . . ألم تثقى بعد ، بأن حبك بدل قيسا ، فأصبح يرى الحياة ، بغير العين التى كان يراها ، بها ، من قبل . . . ثم أضحى يتذوق المثل والقيم ، بروحه وقلبه . . . والعفاف والطهارة هما ، فى مفهومه الآن ، فى القمة من تلك القيم . . . ومن تلك المثل ! . . . أتخذلين ، يا حياتى ، من لا يزال يتسامى ، فى ذاته ، بفضل حبك ، وقد أنقذه وحرره ؟ ! . . . رحماك . . . هند ! ! . . .

وظهرت على قيس آثار ، من الانكسار والجزع والألم ، أثارت حنان الحب ، ورحمته ، فى هند ! . . . ولكنها وهى الواعية ، لم تنخذل ! . . . وإنما اتخذت الرقة واللين سلاحاً لها ، وبادلته الحديث التالى :

هند : قيس ! . . . من عجل بالشىء قبل أوانه ، عوقب بحرمانه ! . . . ولو تأملت فى المآسى والفواجع ، تقع ،

قبل الزواج ، أو بعده ، لعدت بأغلبها ، إلى سبب أساسى ، هو تلبية رغبات الجسد ، قبل عقد الزواج ! فمنه تنشأ المشاكل ، ويتولد الشك والارتياب ! . . . فتُطعن الثقة ، فى الصميم ، فلا يتم تبادلها ، بين الزوجين ! وإذا تم ، فلن يستمر ، لعقد نفسية تكتنفه وتستقر فى الفؤاد ! . . .

قيس : وهل تجدين فى قبلة الحب يتبادلها الحبيبان ، أى جرم ؟ ! . . . فأنا أتبادل القبل كل يوم ، مع والدتى ، وقد أقبل شقيقتى ، فلا يجد أحد منا أى حرج ، أو خشية من أن يتلبس بإثم ، أو يقترف جرماً ! ! . . . ولا أعلم فى الناس من يتأثم من هذه القبل ! ! . . . ولا من يصلها برغبات الجسد ! . . .

هند : (وقد احمر وجهها حياء) صه ، قيس ! . . . أبلغت بك السذاجة حداً ، تقابل بها قبل الأم ، بقبل الحب . . . بين حبيبين ؟ ! . . . والحب إنما يتكامل فى الجسد ! . . . ولذلك يحرص الناس على أن لا يطول أمد الخطوبة ، بله المعاشرة ! ! . . . فالقبلة بين الحبيبين ، إنما هى ، فى واقعها ، بدء رغبات الجسد ! وهى خطوة أولى ، تمهد لسائر الخطوات . . . حتى

المأساة ! . . . وبالمأساة كانت القبلة مفتاح شرور الفواجع ! ! . . . أنسيت حادثة فاتنة ، وقد كادت تغويلك ! ! . . . وكم أغوت من فتى ! . . . وكم غررت بفتاة ! . . . بعد أن تحطمت ذاتها ، وانهارت إنسانيتها ! . . . .

قيس : أو تعلمين ، يا هند ، حقيقة حادثة فاتنة . . . وهى فى جمالها ، تشبه الملائكة ؟ ! . . . أسمع الشباب يتهامسون ، إذا ما ذكرت ، ولكننى لم أجد من اطلع على حقيقة أسباب ذلك الانهيار ! . . . وما أشد شوقى لمعرفة السبب ! ! . . .

هند : مسكينة فاتنة ! . . . ويا لضياع روعة جمالها ، وحدة ذكائها ! . . . وما أشد خسارة المجتمع ، حين تستخدم أمثالها معرفتهن ، ولا أقول ثقافتهن ، فى خداع الآخرين ، والتغرير بهم ، وبهن ، لتنتقم من مجتمع ، لم يساعدها فى تنظيمه وتقاليده ، على أن تستكمل نموها ، على ما أرادته لها طبيعتها ، فى عبقرية جنسها ، وإنسانيتها ! فهى فتاة ، نبتت فى أسرة تواضع الناس على أن يعتبروها ، أسرة نبيلة ، بسبب الثروة والإرث ! . . . ولكن ما فى أفرادها من ترف وإسراف واستهتار ،

يبعدها ، فى الحقيقة ، عن كل ما فى النبل من معان وسمو ! . . . أدخلها ذووها المدرسة ، لا تقديراً للثقافة ، ولكنه الزى ، فى عصرنا هذا ، يقضى على كل فتاة وفتى بأن يسعى وراء الشهادات ، ويحصل عليها بأى سبب ، زهواً ، وحباً بالظهور ! . . . وقد استطاعت فاتنة ، لحدة ذكائها ، واجتهادها ، أن تحصل على أعلى الشهادات الجامعية ، إلا أنها كانت فى مدارس تقليدية ، تبعد طلابها عن تفهم الحياة ، بباعث الحياء المصطنع ، والحشمة المفتعلة ؟ ! فنشأت متعلمة ، تراكميا ، وساذجة ، فى تصرفاتها وسلوكها ! ! . . . خطبت إلى ابن عمها ، حسب تقاليد تلك الأسر . . . وأنّى لمترف مثله ، أن يتحسس بمعانى الحب الصحيح ، وأن يتسامى به ، تسامى من تغدق عليهم الحياة بنعم ذلك الحب ؟ . . . فما زال يستغل سذاجتها ، وهى سذاجة كانت تتفاعل ، فى التأثير فيها ، عوامل متعددة : من ترف الأسرة ، وتراكمية معارف ، بعيدة عن واقع الحياة ، حتى سلبها ، قبل عقد الزواج ، أثمن شىء تختال به الفتاة وتفخر ، وتسيطر وتزهو ! . . . ولم تقدر لسذاجتها ، المزهوة بشكلية المعرفة وشهاداتها ،

عظم ما فقدت ، إلا عند ما تحرك الجنين . . . وأجبرها
من كان يدعى حبها على الإجهاض . . . ثم أزورً
عنها ، وقطع ما بينهما من صلات ، معلناً انفصام
الخطبة لعدم الامتزاج ! . . . وهددها بالتشهير ، إذا
هى أقدمت على إفشاء السر ! وأفهمها أنها شريكة له ،
وللطبيب ، فى الجرم ، وقد ينالها وحدها العقاب ! . . .
لأنه لن يعدم حيلة يتوارى ، هو وراءها ، ثم ينقذ
الطبيب ! . . . وما قولك بالنفوذ ؟ ! . . . وقد
اعترفت فاتنة لإحدى صديقاتها ، بأن تلك القبلة ،
وقد كان حبيبها ، وخطيبها ، يعبر عنها بالقبلة البريئة ،
كانت بدء الشوط فى استغلال الظروف ، وإبداعها .
وشيطان الشرور ، لاتعوزه العبقرية فى إيجاد ظروف ،
تختلس روح المقاومة ، إذا ما نجح فى تمهيد
الطريق ! ! . . . واستعجال هذه القبل يعبد تلك
الطريق ! . . . ومتى استطاع الشاب قطف الزهرة ،
قبل الأوان ، رماها أرضاً ، وركلها برجله ، لأنها
تذبل بين يديه ! . . فلا يعود يستطيب لها رائحة ، أو
يعجب بلونها ! ! ...

صمتت فاتنه ، وكبتت ، فتفتحت ، فى نفسها ،

زهرة سامة بشعة، هى زهرة الانتقام . . . من المجتمع . . . وأصبحت مولعة بإغواء الفتيان ، وتغرير الفتيات ، وما خبر انتحار الفتاة سلوى، عنا ببعيد ! !

قيس : وهل لحادثة سلوى علاقة بفاتنة ؟ ! . . .

هند : نعم، إنها ضحية تغريرها، بباعث عقدة الانتقام، من كل فتى ، ومن كل فتاة ! . . .

قيس : والله ما سمعت بحب واعظ كحبنا هذا ! . . .

هند : كل حب صادق ، هو حب واعظ ، يا قيس !... ولكن عظاته ليست كعظات من تعلم من القوالين الذين يزهون برصف الكلمات ، وتنميق العبارات ، وتزويق المقالات ، وتطويل الخطب والمحاضرات ! . . . إنها معان ، وفكرات ، تنبثق فى النفوس ، وتتجدد فيها ، بفعل تفاعل حب أصيل فى الذات ، مع سائر قوى الذات . . . ومن لم تعظه نفسه ، لا يتعظ بمواعظ الآخرين ! . . . وكل ما أقوله لك ، لا تصبح له أية فائدة أو أهمية ، إذا لم تحرثه نفسك ، فى ذاتها ! ومتى تم الحرث ، تنسجم معه هيأتلك الذاتية ، فيتحقق عندئذ ثقافة تسمو بها ، وتهنأ ! . . . وإلا فهو كلام ينطلق فى الهواء ! . . . وإذا ما اختزنته

الحافظة ، دون حرث ، يصبح ثرثرة وغروراً وزهواً ...
وتتكون منه الشرور . . . فأعجب لخير المعرفة ،
تنبت منه شرور الآثام ! . . . ولا حارث كالحب
فى صدقه ! ! . . .

قيس : أهى ثاء أم سين ، يا هند ! . . .

هند : هى الاثنتان معاً : فالحب الصحيح إذا ما حرث
النفس ، وأنبت فيها البذور الخيرة ، كان حارساً ،
يحفظ النفس من الذل ! . . .

قيس : إنك مدهشة ، يا هند ! . . . تتكلمين وكأنك فى
السبعين من عمرك ، لا فى العشرين ! . . .

هند : هذا ما يجب أن تعرفه ابنة العشرين . . . وابن
العشرين . . . بل من قبلهما ، فى العمر ، منذ
البلوغ ! . . . وإلا فأية فائدة يجنيها من يتأخر فى تلقى
هذه المعارف ، بعد ذلك . . . أو إلى أن يقع فى
الحفر ، ويتمرغ فى الأوحال؟ ! . . . وفى الأوساخ؟ ! . . .
وهل سقطت فاتنة ، وتبعتها سلوى ، إلا بسبب اعتقاد
ذويها بأن هذه المعارف ، هى معارف تليق بالكبار
الراشدين من الناس ؟ ! . . . فنشأتا على جهل بما
يمس الحياة ، فى أشد حاجاتها ، فى هذه الأدوار ،

من نموها ، فى الشباب ! . . . وهذه الأدوار ، هى أشد خطراً ، على كيان الإنسان ، من سائر أدوار الحياة ! . . .

قيس : ومن علمك ذلك ، يا هند ! . . . فالمدارس التى تعلمت فيها ، توازى المدارس التى تلقنت أنت فيها العلوم . ومع ذلك فلم أسمع شيئاً مما تقولين . . . من أى أستاذ ! . . . وقد يسخط الأهل إذا ما حاول الشاب أن يسأل ، أو يستفهم ! ! . . . بلْه َ أمى . . . الحكيمة الحنون ! ! . . .

هند : الفضل لخال لى متحرر . وهو عميق الثقافة ، واقعى التفكير . فقد كان يهتم بأن يرشدنى لذاتى ، ولما يحيق بى من أخطار ، مباشرة ، أو بواسطة والدتى ، شقيقته ، منذ أدركت البلوغ ! . . . فحررنى ، ومهد لى سبيل تفهم دروس علوم النفس ، ولا سيما نفس الشباب ، فى سنتى الأولى ، فى دراستى الجامعية ، فى معهد التربية . . . الحديث ! . . .

قيس : حبذا لو تصبح هذه الأفكار ، وهى تتعلق بصميم الحياة ، مادة من مواد الدراسة ! . . .

هند : لعلها تصبح ، يوماً ، وأرجو أن يكون قريباً ، لا بفعل

تأثرنا بالغير . . . أى بالتبعية ، لا بالأصالة ! . . .
فنظل مقلدين ، ولتفكير غيرنا مستعبدين ! . . .
لأننا لا نزال ، مع الأسف ، نقف فى طريق من
تقوم هذه الأفكار فى صميم ذاته ، منا ، أصالة لا
تقليداً ، فنسومه خسفاً ، ويضطهد ! ! . . . هذه
هى حكايتنا منذ عصور ! أى منذ بدأت جراثيم
الانهيار تفكك كياناتنا الاجتماعية، والسياسية! . . .
أنقذنا الله من ويلات اليأس ، فقد أورثنا فقدان الثقة
بذاتنا . . . وبرجال الفكر والعمل . . . عندنا ! !...
وما بلغ الحديث ، بهما ، هذا الحد ، حتى صرخت
هند قائلة :

هند : أوه ! . . . انظر قيس ! . . قد بلغنا دارى ، وكنت
أظن أننا لا نزال حيث بدأنا حديثنا فى الجامعة !...
ما هذا الذهول ؟ . . .

قيس : حقاً . . . ما كان يدور فى خلدى أننا خطونا خطوة
واحدة ، مع أننا سرنا ما ينيف على الكيلو متر !...
فما أروع الحب ، وما أكثر عجائبه ! . . . .

هند : إذا سير الإنسان قلبه ، لا يشعر بطول الطريق ! ...
والآن ، إلى الملتقى ، يا قيس ! . . .

قيس : مهلاً ، يا حياتى ! . . . ألا نزال على العهد ؟ . . . غفرانك ، يا حياة الروح ! . . .

هند : الحب يا قيس ، لا يأبه للهفوات ، وإنما الخطر فى العناد ، والفساد فى الإصرار !

قيس : ثقى أننى لن أعود لمثلها ، وأننى لك إلى الأبد ! !... يا منقذة قيس ! . . .

هند : ولن أكون لغيرك ، يا حبيب الروح ! ! !. . . فإلى اللقاء ! . . .

قيس : إلى اللقاء . . . يا منى القلب . . . ويا روح الحياة !. وليكن قريباً هذا اللقاء ! . .

٦

عاصفة !...

نصف نهار مضى .. وكأنه لحظة !! ... ولكنها لحظة جمعت الدهر كله ، بجميع أزمانه ! وركزت ، فى نفسى الحبيبين ، جميع مسرات الحياة ! ... فتذوقا معانى الأبد والأزل والخلود !.. وآمنا بوحدة الحياة ، فأصبحت هند قيساً ، وقيس هنداً ، فكأنهما شخص واحد ... وأنسا بتفتح زهرة الحب ، فى قلبيهما ، فأدركا سمو معنى التكامل فى الوجود : فهند تعلو بقيس ، وتنقذه : شأن كل فتاة ، سليمة الميول ... تتفاعل ، فى ذاتها ، عناصر عبقرية الجنس ، فى المرأة الخالدة ! .. وقيس ، فى تكامله ، ينمى نفس هند ، فتتفتح ، فى ذاتها ، أزاهر معانى الحياة ، فتدرك أن قيساً جدير بحبها : شأن كل فتى تسيطر على نفسه شهامته ومروءته ونخوته ، فيكون جديراً بالسيطرة على ذاته . ومن يكون جديراً بالحب ، فهو الجدير بالسيطرة على ذاته ... ومن يسيطر على ذاته ، يسيطر على كل شىء !.. فلا تؤثر فى ذاته صغائر الهفوات تعبر ولا تستمر ، ولا تستقر ؟!..

فى هذه اللحظة ، تجلى الحب ، على حبيبين صادقين ، فتكونت ، فى ذاتهما عوامل النهضة والسمو ، تفعل فى الفرد ، وتجعله جديراً برفع المستوى ، فى مجتمعه ! . . فيعلو المجتمع ، ويسمو . . . ويصبح جديراً بأن يحقق للأمة الأمجاد ! ! . . وهكذا يسمو الحب ، بالفرد وبالمجتمع ، إلى العلا ! ! . . . فيحقق للأمم قوتها واطمئنانها ، فى مجتمعاتها . . . ويشعر الفرد بالسعادة ، تغمره ، لأنه أصبح يتذوق الحياة ، ويحسها ! . . بإجلال ! . . .

لحظة سعادة مرت ، ولكنها استمرت نصف نهار ! . .

ولا أدرى إذا كان الشاعر قصد ما كان عليه قيس وهند من صفاء وسعادة ، عند ما قال :

ما صفا الدهر ، لقوم نصف يوم ، وأتمه ! . . .

فبينما كان المحبان ، فى بدء التقائهما الأول ، على مقعد الجامعة ، يتناجيان ، فيكشف كل منهما عن قلبه لحبيبه . أخذ الدهر يهيء عناصر كدر ذلك الصفاء ، فى دار هند !

صبّح أبو هند زوجته قائلا : صباحك سعيد ، يا أم هند ! . . . فأجابته : نهارك أسعد ، يا أبا هند ! . . . ومع أن العادة ، بين الأزواج أن يتخاطبوا بالاسم مجرداً ، مع ترخيمه أو تصغيره ، تحببا . . . فإن صخراً ، وهذا اسم الوالد ، وحناناً ، وهو اسم الوالدة ، قد تعودا على أن يتناديا بأبى هند ، وبأم هند ، منذ

شبت هند ، لما كان لها فى قلبيهما من حب ، بلغ درجة الولع . . . فهى وحيدتهما ! وهى ، كما يقولان ، دائماً ، وبمباهاة ترفع الرأس . . . جمال وذكاء ، واجتهاد ورصانة وأدب . . . فكيف لا يعجبان بابنتهما ، وهى موضوع لإعجاب كل من عرفها ، ولإ طرائه ؟ ! . . إنها فذة ، فى الفتيات ، جمعت كل المحاسن ! . . . خَلقاً . . . وخُلقاً ! . . . فلاعجب إذا أصبحت أهم موضوع ، فى أحاديثهما ، كلما اجتمعا .

وقد زاد فى ولع أم هند بابنتها ، تحسن معاملة زوجها لها ، بعد أن أدركت هند الفتاء ! . . فما كانت لتتحمل أن ينهر الأب أمها ، أو يصرخ ، فى وجهها ، على سابق عادته . . وما كان هو ليصبر على بكاء ابنته وحردها ! . . وقد جرأها حبه لها ، عليه ، فكثيراً ما كانت تقول له ؛ فى وثبة انتصارها لأمها : إنك قاس ظالم ، يا بابا ! . . فيسترخى ، إذا ما ثارت عليه ، ووصمته بالقسوة والظلم ، فيلين ، بعد قسوة ، ويضعف ، بعد شدة . . ولا عجب فقد كان لقول هند « يا بابا » فعل سحرى فى نفسه . . فكأنها تنومه ، بها ، تنويماً مغناطيسياً ، فلا يعود قادراً على أن يمنع عنها ما تريد ، أو أن يقوم بما يزعجها . . حتى إنه أخذ يستخفى ، فى مغامراته ، ويخفف منها ، إكراماً لقرة عينه ، فلا تتأذى ولا تتألم . . وقد امتنع عن المقامرة ،

فى داره مراعاة لعواطف ابنته ، بعد أن كانت هذه المقامرة فى الدار ، فى مقدمة أسباب خلافه مع زوجته ! . .

إن صخراً من الأشداء « القبضايات » !.. وقد أصبح ثرى حرب !.. وما كان ليستطيع هذا الإثراء المشبوه، لولا حماية وجيه متنفذ ، هو نسيب بلك ، يكافئه بها على ولائه وإخلاصه . . فيطلق يده فى تجويع الفقراء ، وتعرية المحتاجين ،وتخدير عقول الناس..وكثيراً ما كان يشاركه فى مغامراته، فيقتسمان الأرباح !... وقد رفعت تلك الأرباح ، أو إذا شئت الرشى ، قدر صخر لدى زعيمه ، إلى مستوى ، جعله جديراً بصداقة من يحميه ، فأصبحا صديقين حميمين .. وهى صداقة لا يفتأ صخر يفاخر بها الناس.. وهم ينقمون ، بسببها ، عليه وعلى صديقه الوجيه .. المتزعم !.. لذلك رأينا هنداً، ولا رجاء لها فى ثروة أبيها، لأنه، على ما سبق، وصرحت لقيس ، مغامر يقامر ! . . والحقيقة ، أنها ، لتهذيبها ونبل أخلاقها ، تتألم من ثروة أبيها . . . فزهدت فيها ، وأصبحت لا ترجو لها بقاء ! . . . وما كانت هند ، مع شدة دالّها على أبيها ، لتستطيع الجرأة عليه ، فى أعماله الخاصة ، بعد أن حاولت، مرة ، فردعها بتشدده وبهيبة أبوته . . ومن يجرو على صخر وهو الشديد الثّرى ؟ . .

هناك شخص واحد يهابه صخر ، ويخشى جرأته عليه ،

فيداريه ويجامله ، ذاك هو أنيس ، خال هند ، إنه ثرى ، ولكنه نمى إرثه من أبيه ، بكده وعرق جبينه . فكان إثراؤه ، شريفاً مشروعاً . وهو من الأشداء ، أى من رجال الفتوة « القبضايات » ، ولكنه ما كان ليدين بالتبعية لأحد من الوجهاء والمتزعمين ، لثقافته ، وقد حققت فى نفسه خصائص مميزات الفتوة الصحيحة ، وهى : المروءة ، والنجدة ، والإباء ، وحضور القلب . وشدة البأس . . . مع تهذيب ونخوة ، ورصانة وبعد نظر ، واستقلال . . . واو أن حناناً كانت تعود إليه فى أمر مظالم زوجها صخر ، وقسوته ، لانحلت المشاكل ، قبل وعى هند ! ولكنها كانت تخشى سوء العواقب ، لا سيما أنه قد سبق وهربت من بيت أبيها ، اتلحق ، بطريقة الخطف ، بصخر ، وقد هوسها بمظاهر الحب المزيف[1] فقام بين العائلتين تقاطع عداء ، استمر سنة ونيفاً ، ثم عادت المياه إلى مجاريها . وكان عمر أنيس ، حينئذ ، لا يتجاوز الخامسة عشرة ، وصخر قد أتم الخامسة والعشرين . وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة ! وما فتىء صخر يعجب بفتوة ابن عمه أنيس ، ويتمنى لو استطاع أن يكون له تهذيبه وثقافته ! . . لم ينجب أنيس ولداً ، وقد

(١) فى كتاب « الحياة والشباب » (الطبعة الثانية) ص ١٩١ بحث عن هذا الحب .

مر على زواجه سبع عشرة سنة ، فانصرف حنوه ، وحنو زوجته ، لابنة أخته هند . . فكان لهما ، فى حسن تربيتها ، وتوجيهها الأثر القوى . . فشبت ، وهى ترى ، فى خالها ، خالا ، وأبا ، ومرشداً وحامياً . . .

وكأنى بهذا الحنان الرصين ، والشفقة المثقفة ، تنعم بهما هند ، من لدن خالها وزوجته ، قدأثارا عاطفة الأبوة ! فتفجرت فى قلب صخر ، القاسى ، ينابيع حب ورحمة وشفقة ، فانقاد لعواطف الحب الأبوى ، بكل ما فى هذا الحب من ولع ، وتضحية ، وفناء ! . . . فهند ، عنده ، هى كل شىء فى الحياة . على ما سبق وألمعنا ، فلا عجب إذا ما جعل اسمها رمزاً لسعادته ، وأصبح ينادى زوجته ، بأم هند ، ولا عجب إذا بادلته زوجته العاطفة ذاتها ، وهى إنما تهنأ بفضل ذلك الحب المنقذ ! . . منذ أكثر من عشر سنوات ! . . .

إن أبا هند ، فى حبه لابنته ، كان يكبت ، فى نفسه ، أشياء وأشياء . ولكنه كان كبتاً محبباً يسعد به ، إذ يسعد هنده ! . . أوهكذا كان يحاول أن يقنع نفسه ، فيرى سعادته فى دلال ابنته ودلعها ! . . .

كان أول سؤال ألقاه أبو هند على زوجته ، بعد تحية الصباح ، قوله : أين الحبيبة ، يا أم هند؟ . . . إننى لم أجدها فى غرفتها ! . . .

الأم : خرجت باكراً ، على عادتها ، قبل الوعكة ، وكانت نشيطة جداً ولله الحمد ! . . .

الأب : ولمَ لم تحيني قبل الذهاب ؟ ما تعودت منها ذلك ! . . وهى تعلم أننى أتشاءم من يوم ، لا تصبحنى ، فيه ، بوجهها الصبوح . . . الجميل ! ! . . .

الأم : أطلت على غرفتك ، فوجدتك مستغرقاً فى نومك ، فلم تشأ إزعاجك !

الأب : كان عليها أن توقظنى ... وما أحيلى استفاقة ، تفتعلها هند ، لتقبل أباها ! . . . أعوذ بالله من شؤم هذا اليوم ! ! . . .

الأم : لا داعى للتشاؤم ! . . يكفى أنها أطلت عليك . . . ولا بأس من تأجيل قبلة الصباح إلى الظهيرة ! . . .

الأب : تحظين بقبلة الصباح من هند ، معجلا ، وتريدين أن تكون حظوتى بها مؤجلة يا ظالمة ! . . .

الأم : أراك تغار من هند ! . . .

الأب : بل أغار عليها ! . . .

وابتسم الزوجان ابتسامة طويلة ... لا عرض لها ... ولا عمق . . . ثم استمر الحديث على الوجه الآتى :

الأم : ولم تأخرت فى نومك اليوم ، فقد أقلقتنى ! . .

الأب : أرقت أكثر الليل ، وأنا أفكر فى أمر هند ؟

الأم : لم يكن من موجب للأرق والتفكير ، وصحة هند على ما يرام ! . . . لعل مشروعاً جديداً يشغل بالك ! . .

الأب : نعم إنه مشروع عظيم ، وله بهند صلة كبرى ! . . .

الأم : مالك تدخل هنداً فى مشروعك هذا ، ونفسها تتقزز من كل مشاريعك ، وأعمالك ؟ ! ...

الأب : (مفتعلا ابتسامة ، أرادها بيضاء ، فجاءت صفراء) ليس هو مشروع تهريب أو احتكار أو بيع أراض لليهود ، وإنما هو مشروع صناعى كبير ، عرضه على نسيب بك الجليل ، على أن يضمن القسم الأوفر من رأس المال ، وتكون الأرباح مناصفة ! . . ما أكرم هذا الرجل العظيم ، وما أعظم سخاءه ! . . إن النبل والشرف ليتقطر من فمه ، ومن عينيه ! . . .

الأم : (هازئة) أصدقته ، والناس يتهامسون إنه بدأ يبيع من أملاكه لعجزه عن دفع الديون ؟ ! . . .

الأب : (محتداً) مالك ولأعمال لم تخلق لها النساء ؟ ! . . وقد كان من كرمه ونبله ، حفظه الله ، أنه طلب يد هند لابنه جميل . . . فقدمتها له بكل فخر وغبطة . . . ستسكن هند قصر نسيب بك العظيم . . . وستغدو من النساء النبيلات . . .

الأم : أوعدت بيدها ، دون أن تأخذ رأيها ؟ . . . ضاع صوابك أيها الرجل ! . . . (وكانت الأم على علم بسبب أرق هند ووعكتها . وهى تعلم أكثر من ذلك، فإن هنداً تكره جميلا ، وتنفر منه وتحتقره) .

الأب : وهل للبنت خيار فى زواجها ؟ . . ولا سيما إذا كان لها أب حنون ، شفيق ، يعرف كيف يهيء لها سعادتها ؟ ! . . ثم إنه ابن نسيب بك . . . فهل تجدين فتاة ،لا يطير قلبها فرحاً ، حين يطلب يدها، لابنه الشاب الجميل ، الأنيق ، المهذب ! . . إننى سأزف لهند البشرى ظهيرة هذا اليوم ، وقت الغداء . .

الأم : لا تسرع ،أيها الرجل ، وافسح لى مجال مباحثتها فى الأمر ، فى ظرف ملائم ! . . . فإنها خارجة من وعكة ، أخشى عليها نكستها ! . . .

الأب : ومم تتخوفين ، أيتها البومة ؟ . . . وهل تنتظرين لهند حظاً يدانى هذا الحظ ؟ ! . . . إياك أن تتدخلى فى هذا الأمر ! . . . فأنا أكره تدخل النساء فى أعمال الرجال ! . . سأبقى هنا بجانبك إلى وقت عودة هند ، عند الغداء، وسترين كيف أدخل على قلبها السرور ، والغبطة ، والسعادة ، حين أبشرها بأن نسيب بك

يريدها لابنه جميل بك . . وهل من إنسان أعظم حظاً مني ، ومنك ، ومن هند ، يا جاهلة ! . . . إنك حمقاء . . . لا تزالين تنذرين بالسوء ! . . والله ، لئن شوشت على مشروعي هذا ، أخمدت أنفاسك!

فسكتت ، لأنها تعلم قسوته ، ولا ناصر لها الآن! . . .

وسكت ، منتظراً الظهيرة ، ليزف بشرى السعادة . . لهند .

دخلت هند البيت ، والبشر طافح على وجهها ، بفعل الأمل... أمل تكوين عش غرامها ، في بيت ، تتعاون فيه مع من اختارته حبيباً ، ورفيقاً ، وشريكاً ، وكان جديراً بحبها ، ورفقتها ، ومشاركتها في الحياة ! . . .

المرأة أم قبل كل شيء! لا تحلم في فتاتها وشبابها ، وفي طفولتها ، لحد ما ، إلا بالبيت الذي ستخرج إليه ، وبالولد الذي ستربيه ، وتحن عليه ، ويملأ ذلك البيت مرحاً ، وظرفاً ، وسعادة! . . . لذلك تراها تفكر في الفتى الجدير بأن يملأ قلبها فيكون جديراً بمعاونتها على تجديد الذات ، بتجديد الحياة ، وإخصاب المجتمع ، بإخصاب العائلة... وتبحث عنه.. إنه فتى الأحلام! ...

ملأ قلبها قيس ، واستقر فيه . وبرهن على أنه جدير بذلك القلب ، يملؤه حباً وعطفاً ومودة ورحمة... فهو الحري بأن

يسكن إليها، وتسكن إليه، ولن يفرقهما إلا الموت!...
تفريقاً ظاهرياً عرضياً... لأن الحياة، ولا سيما حياة
المحبين، تستمر إلى ما بعده!... وأى عائق يعيق توحيد
حياتها بحياة قيس؟... أمه راضية، وأبوها وأمها لا
يجدان هناء إلا فى سعادتها... فلن يعترضا طبعاً،
على ما تختاره فى أمور حياتها... وهى هند الحبيبة!..
وما إن أطلت هند على أبويها حتى هتفت قائلة: يا ما
أحيلى الماما .. وياما أروع البابا... ينتظران
هندهما!... وأقبلت هند تقبلهما بمرح الفتاة، تلهبها
الأحلام، ويهدئ روعها الأمل!...

الأب : أهلا... أهلا... هند!... إنك تعوضيننى
من قبلات الصباح!... فما أجملك ابنة، تعرف
كيف تفى دينها لأبيها!!...

هند : (وقد أدركت موضوع عتابه) أطللت عليك، فى
الصباح، يا بابا... ولكنك كنت غارقاً فى نومك
فلم أشأ إزعاجك!... لعلها أحلام حلوة!...
وابتسمت!..

وقد كانت تخاطبه برقة ودلع وغنج،
تجمعت كلها، وضعاً حلواً، يستطيبه الآباء،
ويأسر قلوب الأمهات!... ثم أخذت تعبث

بشاربيه . . . وأخذ يستكين ، ويقول : ومن غير هند يستطيع اللعب بهذين الشاربين ؟ . . قالها ، مباهياً ! . . (والاعتزاز بالشوارب من مميزات الأشداء القبضايات ! . . والويل لمن يمسها بسوء ، ولو باللفظ !. .) فأجابته : يا ما أحيلى عطف الآباء ! والأمهات ! . . وراعها أن أمها كانت على صمت رهيب مريب ! . .

الأب : لا شيء أروع من حنان البنت ، ووفائها لأبيها ! . . ثم شزر إلى زوجته . . وأتم حديثه قائلا : كانت أحلاماً حلوة حقاً ، يا حبيبة الروح ! . . إنني كنت أحلم بك وبسعادتك !. . أرقت كثيراً ، قبل نومي البارحة ، ولذا استغرقت في النوم ! . . وما كان أرقي إلا لفرحي الشديد ببشرى ، كدت أوقظك ، لأزفها إلى قلبك العطوف ، فلم أشأ إزعاجك ، فانتظرت الصباح ، فخاب تقديري ، لما أسرعت في خروجك ! !...

هند : هي . . . إذن كانت واحدة بواحدة : لم تزعجني ولم أزعجك ! . . وبشراك ، ألا تصلح إلا لليل؟!

الأب : بل هي تصلح لكل آن ! . . وما أنا في انتظارك إلا بسببها ! . . وهل تكمل سعادة الآباء إلا بمثل

هذه البشرى يزفونها إلى أبنائهم . . . وبناتهم ؟ . .
بدأت هند تدرك مرمى الوالد . وكاد يذهب بها الوهم إلى قيس ، لولا جمود أمها ، فظهر عليها شيء من نفور ، توهمه الوالد الأحمق تضجراً من تأخير بشراه ، فقال لها مترفقاً ، اجلسي ، إذن ، لنتناول حديث بشارة ، ما كنت أنتظر أن يسمح بمثلها الدهر ! . .

هند : أراك ، يا بابا ، مأخوذاً ببشراك هذه لدرجة الوله ! .. وقد أخفتني ! . . فماذا عساها أن تكون ؟ ! . . .
وجلست جلسة المتوجس الخائف ! . .

الأب : وهل يخيف هنداً أن تصبح ربة قصر عظيم ، حولها الخدم والحشم ، تأمر وتنهى ، وتلعب بالأصفر والأبيض ؟ ! . .

هند : إنه لخبر مخيف ! . . ومتى عرفت مني يا بابا ، أنني أهتم بالقصور والحشم والأموال ؟ ! . .

الأب : إنك ما كنت لتطمحين إلى ذلك ، يا هند ! . . فكيف بك إذا ما ضم إليه نفوذ الوجاهة ، والزعامة والسلطان ؟ ! . . .

هند : كل هذا يخيفني . . . وإنني لأشعر بقشعريرة الرعب تدب في كل مفاصلي ! . . بابا ... دعني من هذا

الحديث ... بحق ابنتك هند عليك ! . .

الأب : مالك تتسرعين ؟ . . أعلمت يد من هى تلك اليد الكريمة، تتنزل لطلب يدك الحلوة ، يا هند ؟ ! . .

هند : تتنزل ! . . تتنزل ! . . بابا . . بابا . . لا حاجة لى لمعرفة صاحب تلك اليد ! . . يكفى أن يكون من أصحاب القصور ، والحشم ، والأموال ، والسلطان ، حتى أنفر من يده ، فلا أتنزل لمد يدى إليها !... بابا ، كن رحيما ! . . فالفتاة العاقلة المثقفة ، تطلب قلباً ، تفتخر بأن يضم إلى قلبها ، وتحتقر المال ، والجاه والسلطان ! . . بابا . . بابا . . لا حاجة لى لمن يتنزل إلىّ ، ولا لمن أتنزل إليه ! . . . إن كنت أريد قراناً ، فإنما أريد فيه من ألتقى معه فى مستوى واحد ، لا أراه أرفع منى ، ولا يرانى أرفع منه ، بل يرى كل منا الآخر جديراً به ! . .

الأب : ما أفطنك ! .. وما أشد قوة الإحساس فى نفسك !... إذن أدركت ما أريد ! . . ولا أدرى إذا كنت أدركت من أريد ! . . . .

هند : وهل تريدنى بلهاء ؟ ! . . أما من تريد ، فبحقك لم أتبينه ، ولا حاجة لى لذلك ! . . فابقه فى سريرة

نفسك . واعفني من هذا الأمر ! بحق هند عليك ، يا بابا ! . . .

الأب : (متصبراً ، وهو لا ينى ينظر إلى زوجته شزراً) أعذرك ، يا حبيبتى ، لأنك لم تعرفى بعد من هو ذلك الشاب ! . . إنك على حق ، فليس كل أصحاب القصور ، والمال ، والنفوذ يرغب فيهم الإنسان العاقل! فليس هو من هؤلاء . وإلا لما فكرت فيه ، وأنا أبوك الذى تعرفين ، حنوًّا ، وعطفاً ، وتضحية ! . . . إنه أنبل شاب ، وابن أشرف رجل ، فى هذا البلد ، إنه جميل بك ، بن نسيب بك ! . فهل ترفضين الآن؟ !.. (قالها بفخر وهو يبتسم ابتسامة المنتصر).

هند : جميل أخو فاتنة؟ ! . . ويلاه ! . . إنها لداهية ! .. أنسيت فعلته بسلوى ؟ ! . . ألم تكن ضحية فجوره ، بمكر من فاتنة ، ومن صغارها ؟ ! . . أنسيت بابا ، ما كنا نتنادر به من أحاديثهما وسفالتهما ! . . وما لا يزال يتنادر به الناس ؟ ! . . بابا ، أفى هذه القذارات تريد أن تلقى بهندك ؟ ! . . .

الأب : مهلا ، هند؟ ! . . إنها لهفوات الشباب ! . .

هند : ولكنها ، فى فعلة جميل وأخته ، جرائم وليست

بهفوات ! . . والله ، لو أن غير ابن نسيب بك وبنته فعلا ذلك ، لكانا فى الهالكين ! . .

الأب : إذن أدركت معنى النفوذ والسلطان ! . . فلعله يعيد إلى نفسك صوابها ! . .

هند : بابا ! . . أجاد أنت ، فى قولك هذا ، أم أنت مازح ، هازئ ، على ما أتمنى ؟ . . .

الأب : بل أنا جاد كل الجد ! . . فمن كان من أسرة نسيب بك ، فهو النبيل الشريف ، مهما اقترف من هفوات . كل إنسان ، يا بنيتى الحبيبة ، يعود لأصله ! . . وجميل من أصل ، رأسه فى السماء ! . .

هند : وفروعه تتمرغ فى المقاذر ! . . أيرضى حنوك الأبوى أن يقودنى إليها ؟ ! . .

الأب : إنك تغالين ، يا هند ! . . قلت لك إنها هفوات ، لا تؤثر بشاب هو ابن نسيب بك ، ثراء ونفوذاً ، ونسباً ، وحسباً ، و . . و . . إلخ . . .

هند : بابا ! . . . لا أعتقدك جاداً فيما تقول ! . . .

الأب : قلت لك إننى جاد كل الجد ! . . وقد طلبك نسيب بك بنفسه ، ووعدته ، وانتهى الأمر ! . .

هند : وانتهى الأمر ؟ ! أمر مستقبل حياتى كلها ، قبل أن

يؤخذ رأيى . . . فى أمرى . . . وأمر حياتى ! . . .

الأب : إنك ستوافقين ! وابنة مثقفة مثلك ، لا تعق والدها ، ولا تقف فى سبيل نجاح مشاريعه ! . . .

هند : وما هى صلة مشاريعك فى الأمر ؟

الأب : مشروع عظيم ! . . سيموله نسيب بك ، ونجنى منه الملايين ! . . . الملايين ! . . . وهو يشترط لذلك يدك ، أفلا تعقلين ؟ ! . .

هند : إذن تريد أن تبيعنى بيع العبيد ، فى سوق النخاسين !

الأب : يا ألله . . . ما أشد سخفك ، وما أكثر ما تجادلين ! أهذا يقال له بيع ، أم يقال له زواج ؟ ! . .

هند : (بانكسار وألم) بل أرانى أصبحت لديك سلعة تبيعها أو أرضاً تؤجرها ، أوعقاراً ترهنه ! . .
وما لبثت أن برزت أنفتها، فقالت : أهذا ماتريده لهند يا أبا هند؟ ! . . والله للموت خير من أن أجيبك لهذا الأمر !

الأب : أتهددين أباك ، يا هند؟ ! . . (قالها مقهقهاً هازئا)

هند : حاشا أبى أن يهدد ، فموتى ، أنا ، أردت ! . . .

الأب : هند ترفقى بحالك ، وبأبيك ، ولا ترفضى السعادة ! .

هند : إنها كل الشقاء ! . . .

الأب : أبوك أدرى بمصلحتك ، وقد قرر ووعد ، فهل تريدينه ناقضاً للوعد ؟ ! . .

هند : لا أريد أبي ناقضاً لوعده ، ما وعد فيما يملك !

الأب : (وقد ابتسم ابتسامة من وجد لضيقه فرجاً) أليس الولد ملك أبيه ؟ . . .

هند : كلا ! . . . الولد ملك ذاته ، ويبر أباه ! . . .

الأب : (محتداً) لعن الله ساعة دخلت فيها المدرسة ! . . أمع أبيك تتفلسفين ؟ : . . إنه لعقوق ! . . عظيم . .

هند : وأعظم منه بيع البنات بيع السلع ، أو بيع العبيد ! . . هنا انفجرت عينا الأم بدموع سخينة ، وأخذت تجهش بالبكاء ، وهي تقول ؛ دعها الآن . . واتركها لي لأقنعها ! ... وامهلني أسبوعاً واحداً ! . . .

الأب : ولكن نسيب بك مستعجل ، ولا أستطيع إزعاج خاطره بإمهاله ، إرضاء لك ولابنتك ! . . إنني قد وعدت ، ويجب أن ترضخا لأمري ! . . . ولن أقبل ، بعد ، أي جدل ! (قالها بجزم وحزم وعزيمة)

هند : (وقد استجمعت كل ما في نفسها من قوة وإباء) وأنا قد وعدت ، ولن أقبل فيمن وعدت الجدل ! . .

الأب : وعدت من ؟ يا عاقة أبيها ! . .

هند : وعدت قيساً ، ذلك الشاب النبيل !

الأب : وعدت قيساً ، ذلك القروى اليتيم الفقير ، يا خائنة ؟!

وأخذ الغضب من الأب مأخذه ، فهجم على ابنته ليصفعها ، ولكنها ارتدت ، وتوارت ، وأغلقت الباب وهى تجهش بالبكاء والنحيب !

وبينما كان صخر يصخب ويصرخ ، مهدداً بذبحها ذبح النعاج إذا لم ترضخ لإرادته ، دخل أنيس خالها ، فدهش مما رأى . . واستغرب مايسمع ، فسأل عن التى تستحق هذا الذبح . . . فأجابه صخر : إنها هند العاقة ، تتمرد على أبيها ، وتعصيه ! . .

ولما علم بما وقع ، استمهل صهره ، ليجتمع بابنة أخته . . . وفى حديثه معها تأكد أن أباها يسىء فهمها ويريد بضغطه ، أن يسلبها استقلالها ، ولاشىء أعز على الشباب من استقلاله ! .. وبإساءة فهم الشباب تستحكم فى النفوس العقد ، وتنشأ المنازعات ، فتفسد الصلات فى الأسر والعائلات . . ويضطرب المجتمع ، فتنهار الأمم ! . . وهنا يكمن الفارق بين تربية صالحة تسمو بالنفوس ! . . وتربية طالحة ، تسف بها .

رجع الخال إلى صهره ، وبادره بقوله :

الخال : أتعلم أن الحمى بدأت تتسرب إلى جسم هند ؟ . . .
وأنى قد اضطررت إلى استدعاء الطبيب تليفونياً ، الآن !
من غرفتها . . .

الأب : لموت البنت خير من حياتها ، عاصية ، عاقة ! . .
وإن حرمانها من إرثى هو أول ما قررت إذا استمرت
على عصيانها ! . . .

الخال : أتحكم عليها بما تقول ، بعد أن تحاول صفعها ،
وتهدد بذبحها ، وتتناسى أنى خالها ! . . .وأن مكانتها
فى نفسى مكانة الولد ؟ إنك تعلم أنى لم أرزق ولداً
فى حياتى . . . وكل تعزيتى أن لى فى هند ولداً ، أحن
إليها ، وتملأ فراغ قلبى ! ... أفلا تراعى هذه العاطفة
فى نفسى ، إذا كنت لا تراعى عاطفة الأبوة ، فى
نفسك ! . . . إن كنت تقدر أن شعلة الفتوة قد
خبت فى نفسى ، إذ تعلمت ، شأن أكثر المتعلمين
اليوم ، فقد خاب ظنك ! . . فالتعلم إذا أصبح ثقافة ،
يزيد الفتوة تركيزاً ، ويحسن توجيهها ! فاحذر أن تمس
هنداً بسوء ، ولو بكلمة ، فإنك لن تأمن ، عندها ،
غائلتى ! . . ولن يأمن شرها ابن زعيمك ، ولا زعيمك
نفسه ! . . تهدد بحرمانها من ثروتك ، وهى أزهد الناس

فيها !. ولن تفقرها بذلك . . . فلها ثروتى وثروة أختى معاً، وفيهما ما يفوق ثروتك، فاهنأ بثروة، يعرف الناس جميعاً كيف جمعتها ، نهباً و سلباً . . . وتذللا وتدليساً بفضل طغيان زعيم ، تعتز باستعباده لك ! . . . وبإشراكك فى آثامه وجرائمه ! . . .

ولما كان صخر ، على ما أسلفنا ، من الأشداء الجهلة . . .
فقد كانت الفتوة ، فى نظره ، صخباً وضجيجاً ، وعنجهية وغروراً ، يعبر عنها شارباه ، وتبختر مشيته ! حتى إذا ما جد الجد ، ولم يكن هناك من يحميه ، ظهر عجزه ، وأسفر عن جبنه . لذلك رأيناه ، يلين لابن عمه ، مؤكداً له أنه إنما أراد تربيتها ، خوفاً عليها من الشذوذ ! .. فانتفض الخال وقال : ومتى أصبحت تخشى على هند ، تلك الفتاة المثقفة الواعية ، من الشذوذ ؟ . . .

الأب : منذ علمت منها بأنها وعدت قيساً بالزواج ، دون علمى ! . . أفليس فى هذا كل الشذوذ ؟

الخال : ما أكثر محاولاتك ماكراً ! . . وما أقصر طرقك فى مكرك ! . . ألم تستبق تصريحها بقسوتك ، متجاوزاً حدود الأبوة ، بالبغى عليها و بالتعدى على استقلالها . . . كإنسان ؟ ! . . ثم هل أمهلتها حتى توضح ما وعدت به قيساً ؟ ! . . .

الأب : ألم تعده بالزواج ؟! . .

وظهر على الأب شيء من ارتياح ؛ وأتم قوله : إذن يمكن الحصول على قبولها الزواج بجميل ! . .

الخال : أهذا كل ما يهمك من أمر ابنتك ؟ ! . . يكفيك أن تقبل جميل بلك قريناً ، فلا تأبه لكل ما يساورها من خواطر ، وعواطف ووثبات ! . . ما لك لم تسلني عما وعدت به قيساً ؟ . . أليتمه وفقره تتنكب عنه ؟ فلا يهمك من أمره شيئاً ! . . يا لك من غر جاهل !

الأب : أتشتمني ، وتهينني ، يا ابن العم ؟ ! . . (وظهرت عليه أمارات الاضطراب والارتباك ، لا الغضب)

الخال : ما أريد الشتم ، وما قصدت الإهانة ، وكل أمنيتي أن تترك غرورك وتعود لصوابك ! . . اذكر يا صهري العزيز ، أن الأمر يتعلق بهند ، وحيدتك ! . . .

الأب : إذن تقر أنت أنها تتمرد على أبيها ! . .

الخال : وهل في التمرد الصادق عيب ، أو نقيصة ؟ ! . . والنقيصة في الشباب إنما تكون في العناد والعصيان !

الأب : فلسفة جديدة ! وهل من فرق بين التمرد والعصيان.

الخال : الفرق بينهما واسع الآفاق : فبالتمرد يدافع الشاب عن ذاته ، فيرفض ما لا يقتنع به ! وهو فضيلة !

أما العناد والعصيان ، فحالتان تتطوران عن تمرد ، ظهر خطؤه . . . وهما نقيصتان فى الشباب !

الأب : (وقد انفرجت أسارير وجهه) أليس فى تفضيل هند قيساً اليتيم على ابن نسيب بك ، الكبير الوجيه . . . المتنفذ . . أخطاء ؟! . . وليس خطأ واحداً ؟! . . فهل يكون إصرارها تمرداً صادقاً ، على زعمك ؟ ! . . ثم ألم يكن خطؤها عظيما ، وقد وعدت قيساً دون أن تستشير أباها ؟ ! . .

الخال : حقاً إنك صخر ، لا يتفجر ماؤه ! . . أى عاقل يقول إن تفضيل اليتيم الفقير المهذب ، على ابن السرى الغنى الفاسق ، خطأ فى معارك الحياة ؟ ! . . وهل كنت تجد فى تصرف أختى ، زوجتك ، خطأ ، عند ما فضلتك على فريد الغنى ، وقد كنت فقيراً ، آنذاك ؟ . . ما انا لا نعامل أبناءنا بما سبق وأردنا أن يعاملنا به الآباء ؟! .. أنكون أشد بشرية من أبنائنا ؟ !.. (وهنا ظهر على صخر انخذال وانكماش) ثم بأى شىء وعدت هند ؟ . . إنها ، على ما فهمت منها ، لم تعد قيساً بالزواج ! . . وكل ما فى الأمر أنها ، وهى الفتاة المثقفة الواعية ، وجدت فى قيس ،

فتى أحلامها ، بعد أن اختبرته، واختبرت غيره ، من شبان الجامعة ، وغيرهم . . . وأنت تعلم أنها سبق أن رفضت أن تستجيب لكثيرين من شبان، طلبوا يدها قبله، وكنت أول المحبذين لضرورة منح هند استقلالها ، فى اختيار من ترضاه شريكاً لحياتها ... فوعدت قيساً بأنها لن تكون لغيره ، لاقتناعها بأنها وجدت فيه فتاها ! .. وهى لم تحترز من وعد جازم حاسم ، إلا انتظاراً لموافقة والديها ، ومن تثق بهم من الأقربين ولا سيما موافقتك أنت ، يا صخر ! ... فإن وافقتم ، فبها ونعمت . . . وإلا فهى قد قررت أن لا تكون لأحد ! . . وهذا قرار تمرد صادق ، لاقرار عناد مفتعل ، أو عصيان . . . فهند ، لما هى عليه من وعى ، لن يخشى عليها الإصرار على قرارها ، عناداً إذا ما تبين لها ، مع الزمن ، أنها كانت على خطأ . . فهى تعلم أن الرجوع عن الخطأ صواب ، وفضيلة . . ولكن المهم لديها ، فى كل ذلك ، اقتناعها هى ، أولا . . وهذا حق مقدس من حقوق كل إنسان ، وقد اعترفت به جميع الشرائع ! . . .

* * *

وهنا لحظ أنيس تبدلا فى هيأة صخر، أكد له حسن تأثير أقواله، ولاسيما عندما فسح لصهره مجال الأمل، فى إمكان

الرجوع عن وعد عقدته هند، إذا ظهر خطؤه ، فأتم حديثه قائلا :

فأنت ترى أيها العزيز ، أن هنداً ماتزال برة بك ، و بوالدتها. وإنها لتعترف بأن لكما عليها أن لا تقترن بمن لا تريدان ، فلا تفعل فعلة أمها ، في استسلامها إليك ، على الرغم من والديها، وهذا بر عظيم . . (فتململت الأم واحمر وجهها) . . . وتضحية كبرى. . . يجب الاعتراف بها. . لأنها تضحية بالحياة ، في سبيل إرضاء الوالدين ! . . وأما أن تجبرها على الاقتران بمن لا تريد ، فإنه بغي وعدوان . . . لن ترضاه . . . ويحق لها ، ولكل فتاة واعية مثلها ، أن تتمرد عليه ! . . .

وهنا توقف الحديث لوصول الطبيب ، وقد اختاره أنيس من بين من يعرف من الأطباء الأجانب ، لسببين : لأنه يستطيع أن يطلعه بلغته ، وهو يتقنها على جلية الأمر ، فلا يفهم صخر ما يقول. . . ثم هو يعلم أن صخراً ، وأمثاله ، من الجهلاء ، ومن المغرورين من أنصاف المتعلمين ، يتهيبون الأجنبي ، ويستسلمون إليه ، لأنه أجنبي ! . . وهي عقدة صغار ، تجعله يأمن على ابنة أخته من مفاجآت الوالد ! . .

تبين للطبيب أن حرارة هند بلغت الأربعين درجة ، فوطأة الحمى شديدة. . . فأوصى بأن لا تزعج ، وأن لا تثار . . .

وطلب ، بالاتفاق مع الخال طبعاً ، أن يخصص لها ممرضة ، تلازمها ... واختيرت أجنبية أيضاً للسببين ذاتهما ... فجعل أنيس ابنة أخته ، فى حصن منيع ، إلى أن تبل من مرضها ! ..

وبعد ذهاب الطبيب ، رأى أنيس أن يلاين صهره ، فقال له : يا عزيزى ، إن حالة هند خطرة ، فعليك بمداراتها ، والحنو عليها . وإياك أن تثيرها بأى حديث .. يزعجها ! ...

الأب : ونسيب بك ينتظر جوابى ، وهو مستعجل . . . وأنت تعلم مقدار احترامى له . . . وأننى أضحى ، فى سبيله ، بكل غال ونفيس ! . .

الخال : لك فى مرض ابنتك ، مبرر للتأجيل . . . واترك لى تدبير الأمر . . . .

الأب : إذن تعدنى بإقناع هند ! . . .

الخال : سأدرس القضية . . . وأحل المشكلة . . . ولن يكون إلا ما ترضاه ، أيها الصهر ، وأختى تساعدنى على ذلك . . . (وغمزها)

الأم : سأعمل على إقناعها ، عند ما تشفى ، إن شاء الله ! ..

فانفرجت أسارير الأب ، وقبل زوجته ، وأخاها ، وهو يقول : شكراً لكما ، فأوامر نسيب بك مقدسة . . . حرام أن لا تنفذ .. . وابنه جميل بك زينة الشباب . . . وسيدهم ... فما أسعد هنداً ، فى ذلك القصر المنيف ! ...

٧

فى البيت الصديق

وهل هو سوى بيت كريم ، ابن عم هند، وسلمى ، بنت عم قيس ! . . ويذكر القارئ النبيه أن اقترانهما كان فى مقدمة الأسباب التى سهلت تقارب تلمي هند وقيس ، وتعارفهما ولا بد للحب من أسباب مهيئة ، تشغل الفؤاد ، قبل أن يتصل بالشعور والوجدان ! . . . وقد كان هذا التعارف فى وقته المناسب ، إذ كانت هند فى طور اتجاه الحب ، فى نموه فى نفسها ، نحو اختيار فتى الأحلام ، لتؤسس معه ، فى عهد غرامهما ، البيت الذى ينمو تخيله ، مع نمو الحب ذاته . فمن صورة البيت الذى ستخرج إليه ، ومن فكرة الأولاد الذين سينشأون فيه ، تتكون أحلام الفتاة ، فى شبابها ! . . . وإلا كان الحب هوساً ، لا أمل معه !. . . فيفنى الشباب فى سكون عزلته الداخلية ، أو يفسد ، فتكون الأمراض ، والمآسى ! . . . ولا تكون الاضطرابات ، والشذوذ ، فى حب ، لا أمل معه ، سوى

انعكاس لما هو فى داخل الذات ، فى سكونها ، وخمودها ، من كبت وغم وألم ! . . . وقد وجدت هند فتاها ! . . . فعليه أن يحقق حلمها فى تكوين بيتها ، ليصبح عشاً لغرام خصيب ! ... يملأ قلبيهما ، ويسعد حياتهما المشتركة! . . . وبذلك يتحقق معنى الزواج الصحيح . . . فى وعى سليم لوثبات الشباب ، فى الفتيات، وفى الفتيان ! . . .

وقيس ، منذ تفتحت زهرة الحب الصادق فى قلبه ، لاينى عن التفكير فى البيت الذى يتحقق فيه هذا الحب، عطاءً سخياً خصباً ، ترتاح إليه الذات، روحاً وجسداً ، فتتركز الحياة ... وتسمو . . . وتسعد . . . على ما يشاهده فى بيت سلمى وكريم! فهذا البيت ، على بساطته ، لأن موارد عصفوريه لا تسمح لهما بالترف ، تشع السعادة فيه إشعاعاً ، لا يجده فى قصور المترفين . فالسعادة تنبثق من داخل الذات ، بفعل الحب ، لا مما نمتلك فى خارجها ! . .. وأصبح قيس يعتقد هذا ، بعد أن فجر حب هند ، فى نفسه ، منابع فلسفة الحياة ، فى التصرف وفى السلوك! فورده الضئيل ، وهو ما تبقى من إرثه ، وما وعدته به أمه من مساعدة ، إلى أن يريش ، وموارد أعمال مثمرة، صمم على القيام بها ، فى فراغه ، تكفيه لبناء عش غرامه السعيد ! . . فلا حاجة للتأجيل ! . . والتأجيل ، بعد التعارف الروحى العميق ، بين

حبيبين ، تفتحت فى نفسيهما زهرة الحب الصادق الصحيح ، خطر . . . وقد تصدر عنه المآسى . . . والفواجع . . . فليتنبه الأولياء . . . وليفطن لذلك من يهمه أمر صلاح المجتمع ! . . من شباب . . . وكهول . . . وشيوخ . . .

كان بيت سلمى وكريم مثالا ، يحاول أن يحتذيه قيس ، فى حياته المقبلة . فما فتئ ، منذ انبثقت ينابيع حب هند فى قلبه ، يرتاده كل يوم ! . . . ليستلهم جوه ، وليتسقط أخبار الحبيبة ، فى مرضها الأخير ! . . . عرف بكل ما وقع ، فاستولى على نفسه ألم حزين ، وازداد تولها ! . . وما كان يجد شيئاً ، من تعزية وسلوى ، فى غير هذا البيت الصديق ، بعد أن انقطعت أمه عن زيارة بيت هند ، على مضض ، بعد أن حدث ما حدث . . . وقد كان طائرا هذا العش ، الجميل فى بساطته ، والسعيد فى هدوئه واطمئنان نفسيهما ، كريمين ، فى عطفهما على حب ، شبيه بحبهما ، صدقاً وإخلاصاً . . . وكريمين فى مؤاساتهما لقيس ، وفيما ينقلان إليه من أخبار هند ، وصحتها ! . .

وهند ما كانت لتردد ، فى هذيان الحمى ، سوى كلمات هى : قيس ! . . . حبيبى ! . . . لن أكون لسواك ! . . .
وكانت نفس أبيها صخر تتصدع ، عند سماعه تلك الكلمات ، ولكن . . . ماذا عساه أن يصنع ؟ ! . . . المرضة بجانبها . . .

وهى أجنبية . . . يهابها ! . . . والطبيب يأتى مراراً كل يوم . .
وهو أجنبي . . . يهابه ! . . . وخالها ، يكاد لا يغادر البيت .
وهو شديد . . . يهابه أيضاً . . . إن صخراً كان يفضل موت ابنته
هند على إغضاب نسيب بك ! . . . وحاول أن يستميل زوجته
لتقنع ابنتها ، مراراً ، ولكنها كانت تجيبه ، وهى تجهش بالبكاء :
أفى مثل هذه الحالة تستطاع محاولة الإقناع ! . . . أتريد أن
تقتلها ؟ ! . . . فيقول لها ، بصفاقة المهووس ، ولكن نسيب
بيك مستعجل ! . . . وكان يقولها بانفعال مكبوت ! ! . . .

عقد لسان قيس ، من دهشة المفاجأة ، عند ما رأى هنداً
تدخل ، مع الممرضة ، إلى دار سلمى وكريم ! ! . . . إنه
كان هناك ، تلبية لدعوتهما ، فى تناول طعام الغداء . . . فما الذى
جاء بهند فى هذه الساعة ؟ . . . أهى مدعوة أيضاً ؟ وهذا منتهى
العطف من صديقين كريمين . . . ولكنها المفاجأة ! . . . ولا
تخلو من خطر ! . . . أم أن هنداً علمت بأمر الدعوة ، فجاءت
هى تفاجئه ؟ . . . والحبيب لا يحاسب ، ولا يحاكم ! ! . . .
ولكن الواقع لم يكن هذا ، ولا ذاك ! . . . فقد كانت
دهشة هند أشد من دهشة قيس ! . . . فاستلقت على الأريكة
ولم تتكلم ببنت شفة ! . . . استولى الذهول ، مدة ، على
الجميع ، وكانت عيون هند وقيس تتبادلان نظرات الحب والحنو
والإشفاق ! . . . وما ذرفت الدموع ، حتى فثأ عنهما الحال ،

وتنفس الحاضرون الصعداء ! . . . فقالت الممرضة : ما أروع لقاء المحبين ! . . . وقال كريم : وما أشد دهشة المفاجأة ، فى الحب ! . . . فأكدت سلمى قائلة : إن أسعد لحظة ، هى تلك التى يلتقى بها المحبان ، بعد فراق واشتياق ولوعة . . . فلا غرابة إذا ما سيطر فيها الذهول . . . فالسعادة ، فى صميم القلب ، تشغل الإنسان عن كل ما عداها ، فيذهل حتى عن ذاته ! . فنحن الآن كلنا سعداء ! ! . . . أهلاً ! . . . أهلاً ! . . . بك يا هند ! . . . ألست سعيداً يا قيس ، وهند أمامك ؟ ! . . فلم يستطع جواباً ، فنابت عنه دموعه ! . . . فتحاملت هند ، على ضعفها ، وقالت : ما بك ، قيس؟ . . . فأجاب منكسراً : ما بك يا هند ! . . . ألم وجوى ، وحرقة فؤاد ! . . .

كان قد مضى على فراق الحبيبين ما ينيف على الأسبوعين . وقد بلغ الإعياء بقيس حداً ، أوجعه وأضعفه . . . وكان الطبيب الأجنبي ، وقد أصبح طبيبه ، منذ اعتمد عليه فى تطبيب هند ، قد أوصاه بأن يلزم فراشه ! . . . ولكن أنّى له ذلك ، وهو مضطر لإتيان بيت سلمى وكريم ، مستأنساً ، مستعلماً ! . . . فكان يتحامل على نفسه ، ويتقوى ، بإمداد وثبات الحب ، فى فؤاده ! . . . وكم حمل الحب المحبين ! ! . . . وما رآها ، حتى سيطر عليه الإعياء ، فلم يستطع الوقوف ! . . . وقد حاكى

هزاله هزالها ! ! . . .

ابتسمت هند ، فابتسم ، فى وجه قيس ، الكون كله !... أليست هى كل شىء عنده ؟ . . . ثم قالت بحنو ظاهر ، وإشفاق متألم : أراك هزيلاً ، يا قيس ! . . . أكنت مريضاً أيضاً ؟ ! . . . فأجابها : أو لسنا شريكين ، فى السراء والضراء؟ أتمرض الحبيبة ، ولا يمرض قيس ؟ ... فاستدركت ، مازحة ، تقول : وكيف يتحقق التعاون إذا ما مرض الحبيبان ؟ ! . . . معاً ! . . . فاتخذها قيس فرصة ، يبث بها وجده ، فقال : يتحامل قيس على نفسه ! . . . وفى خدمة الحبيبة ، وفى عنايته بهنده ، يجد القوة . ومن أنفاسها يستمد التشجيع . . . فتكون مواساته لها شفاء له ! . . . كم غبطت هذه الممرضة المهذبة الحنون ! . . . وكم تمنيت لو كنت مكانها ، فأقوم بخدمة من أصبحت كل وجودى ، فى هذه الحياة ! . . . فقهقهت هند قهقهة خفيفة حلوة ، وقد ظهرت على وجهها أمارات الانشراح ، والارتياح ، وهدرت ، كالحمائم ، تقول : إنك شديد الأنانية ، يا قيس ! . . . فأراد أن يدفع عن نفسه هذه التهمة . . . ولكنها استمرت قائلة : ولم لا تتحامل هند على نفسها . . . وتعنى بقيس ؟ ! . . . فاندفع يقول : ليت قيسا يظل المريض ، والحبيبة هند الآسية . . . فابتسم الجميع ، وصفقوا إعجاباً ببراعة

التخلص . وابتدرته الممرضة ، برطانتها ، تقول : إذن كنت مزاحمة لك ، يا قيس . . . وما أدرى ماذا كنت تصنع ، لو كنتُ فتى ! فأجابها ، بتحمس المندفع : إذن لقتلت نفسى ، ولا أجرؤ على أذية من يخلص مثلك ، لهند الحبيبة ! ! . . فأعجبت الممرضة بذكائه ، ورأت أن تستمر فى مداعبتها له ، ترفيهاً عن هند ، فغمزتها بعينها ، كمن يريد أن يقول : لا تأبهى لما ستسمعين ، فإنى مازحة ، وقالت : وإذا قضت الحوادث بأن تقترن هند بغيرك (ولم تجرؤ أن تقول بجميل ، لأنها تعلم سوء تأثير هذا الاسم على نفس هند ، وشدة وطأته على قلبها ، فهل تتحمل ذلك ، فى سبيل راحتها ؟ ! . . .

هنا وقف قيس كالمأخوذ ، واتجه إلى مقعد هند ، وجلس بجانبها ، وأخذ يقول ، وعيناه تنظران إليها ، وقد غمرتهما الدموع : حياتى ، إن ممرضتك تداعب وتمزح . . . أما أنا ، فإنى جاد كل الجد : إن أى حل يريحك ، يسعدنى ! . . . فلا تتقيدى ، بأى وعد ، أو عهد ! . . . فإنى أحلك منها جميعاً ، فى سبيل راحتك ! . . . إنما يسعدنى أن تكونى سعيدة وكفى ! . . . فاتخذت هند هيأة الجد والتصميم ، وقالت : أو تعدنى ، إذا ما وجدت حلا أرتاح إليه ، فى هذه الورطة ، أن تحل نفسك من وعدك ، وتقترن بغيرى ؟ ! . . . فأجابها ،

والجد والحزم بارزان على وجهه : إننى أتحمل ، فى حبك ، يا هند، ومن أجل راحتك ، كل شىء ، إلا هذا ! . . . ليس لأنى أتمسك بوعد ، أنت تحليننى منه ، بل لأنى لا أستطيع ! ولن أستطيع ! . . . فقد تملك حبك قلبى ، ولم يعد يهنأ إلا براحتك ! . . . على أى وجه ترتاحين ! . . .

هند : أتتحمل ، يا قيس ، أن أقترن بغيرك ؟ . . . ولا تتحمل أنت أن تقترن بسواى ؟ ! . . .

قيس : المهم ، عندى ، سعادتك ، وحدها . . . وحدها . . .

هند : أنتصارح ، يا قيس ! ! . .

قيس : إن فى أقوالى ، كلها ، كل الصراحة . . . وإنى جاد فى كل ما أقول ! ! . . .

هند : قيس ! . . . أحببتنى صحيحة سليمة . . . وقد تبين ، من توالى الحوادث ، أن جسدى ، لا يقاوم الصدمات ! . . . فجسمى أضعف من روحى ، وسيظل التوازن بينهما مختلا ، ولن يفارقنى المرض ، ولا الهزال ! . . . وإنى أجد هذا كافياً ليحلك من وعدك فتتحرر منه . . . وتسعدنى راحتك ، كما تسعدك راحتى . . . وأرى أن راحة كل منا أصبحت فى تحرره من وعده . . . أفلا توافقنى على هذا الحل ؟ !

قيس : وتتزوجين ؟ . . .

هند : ليس هذا موضوع البحث ! . . .

قيس : لمَ يحاول كل منا أن يخدع نفسه ، ويخادع حبيبه ، ليسابقه التضحية ؟ ! . . . أنا لم أحب فيك الصحة ، ليطفئُ شعلة حبى المرض . . . ولم أحبك للسعادة ، لأخشى فى حبك الشقاء ! . . . إننى أحبك أنت ، لذاتك ، سعدت أم شقيت ! . . . أكنت مريضة أم صحيحة ! ! . . . فسعادتى فى أن أكون شيئاً مفيداً لك ، فى حياتك ، وأن أخفف عن نفسك ضغط كوارث الحياة ! . . . وبذلك أظل ، لك ، إلى الأبد مهما تطورت الحوادث ، وتعددت الكورث ! . . . فلا تلزمينى بما لا أستطيع ! . . . سيرى فى طريقك ، وفى سبيل إرضاء أبيك ، مطمئنة ، على ما تفضلين . . وليس لى ، وأنا الذى يملأ قلبه بهجة ما ترتاحين إليه ، أن أطالبك بأى وعد ، أو عهد . . . حبيبتى ! . . . لن تضامى ! ! . . . فأنا لك على السراء . . . وعلى الضراء . . . وفى البؤس . . . كما فى النعيم ! ! . . .

هند : شاورت قلبى ، فلم يوافق . . . أردته على الخضوع لما تجرى به الأحداث ، فلم يطاوع . . . إن حبنا أقوى

منا ، يا قيس ، فلن أكون لغيرك ! . . .

ثم أطبق فم على فم ، وطبعت على شفتى كل منهما قبلة حب ، لا هوس فيـه ، ولا خداع ، ولا خفاء ! . . . قبلة صريحة ، لا تهيب العلن ، لما ، فى بواعثها ، من صدق وعفة وشرف !.. شهدها الأصدقاء ، فكانوا شهود حب صحيح صادق ! لا زيف فيه . . . فخشعوا جميعاً ، إجلالاً لسلطان الغرام ، يجمع قلبين . . . فلا تستطيع تفريقهما الأحداث ! . . . واحتراماً للتضحية العظمى ، يخفق بها القلب ، معبراً عن صدقه وإخلاصه ! . . . غيبت تلك القبلة ، قبلة الصفاء والثقة ، ذينك الحبيبين عن الوجود . . . وما استفاقا حتى وجدا نفسيهما ، وقد أصبحت نفساً واحدة ، محاطة بالإجلال والاحترام والخشوع . . . وسلمى تقول : إن هذه القبلة الصادقة إن هى إلا إكليل ، يمجد انتصار الحب الصادق ، على هوس المشعوذين . . . وعلى تدجيل كل من يحاول استغلال الحياة ، بإيقاف انطلاقهما فى تحرير الأحياء ! ! . . .

وصفق الجميع ، وسادهم سرور وابتهاج وفرح ! . . .

* * *

ما لبث الذهول أن استعاد سيطرته على النفوس، وما كادوا يباشرون تناول الطعام على مائدة ، توفرت فيها الأدلة على ذوق سليم، يتحسس معانى الجمال ! . . . فما الذى حدث ؟ ! . . انكمشت هند ، وانطوت على نفسها ، فجأة ، وظهر على وجهها شيء من اضطراب، يدل على ارتباك ! ! . . .

سلمى : ما بك ، يا عزيزتى هند ؟

هند : إننى أستفتى قلبى ! . . . ألم تكن تلك القبلة سبباً فى سقوط فاتنة ؟ ! . . . مالى لم أتحرج بها؟ . . . وقد كنت أتحرج من أن يلمس قيس يدى ؟ ! . . . أتبلغ الشدة بالفتاة دركة ، تستسهل معها الشذوذ ، فلا تكترث بالإثم ؟ ! . . . ويل للفتيات من ظلم الأولياء ! ! . . . ولا سيما الآباء ! ! . . .

سلمى : هونى عليك ، أيتها العزيزة ! . . . فالفرق عظيم بين قبلتين : فالقبلة التى انهارت بها فاتنة ، إنما كانت تلبية لنداء الجسد ، ولم تكن قد تكامل الحب ، فى روحها ، بعد ! . . . أما قبلة اليوم ، فإنها استجابة لنداء الروح ، يتكامل الحب فيها ، فيتصل لهيبه بالجسد ! . . . وليست القبلة ، فى هذه الحال ، سوى مسكن للهيب النفس ، وتوقها . . . وإلى أجل ! . .

خلسة أخذت القبلة من فاتنة ، ففعل الكبت ، فى جو خادع ، فى الخفاء ، فعله . . . وسماحاً منحت قبلة اليوم ، وشهدها شهود من أصدقاء ، فعبرت عن الثقة فلن يكون لكبت الخفاء عمل ! . . . إنها قبلة بريئة ، ابتهجت لها قلوبنا جميعاً ، وليس بيننا من عرف عنه التساهل والاستهتار ! ! . . . إنكما زوجان ، بعرف ناموس الطبيعة . . . وإنكما بحكم الشرائع السماوية زوجان ، تغمرهما روعة الحب الصادق . . . والله حب وجمال ! . . . وفى الحب والجمال كل الحقيقة ، وهما جماع الخير ! . . .

هند : وهل يعترف المجتمع بما تقولين ؟ ! . . . (قالتها بألم ظاهر) .

قيس : ما لنا وللمجتمع ، يا هند ! ! . . . لم لا نتحرر كما تحرر الناس فى الغرب ؟ ! . . .

الممرضة : كنت أكتفى بالاستماع ! وأبتهج بما أشهد ، من تفتح النفوس ووعيها ، فى هذا الحفل ! . . . ولكننى أخشى أن تدركوا ، فى تحرير الغربيين ، الانفلات ، على ما سمعته من الكثيرين ، ممن رحلوا إلى الغرب ولم يعيشوا إلا فى بيئات منفلتة ! . . . وما أكثرها فى

الغرب ، اليوم ، مع الأسف ! . . . ولذلك نرى أننا بدأنا ، هناك ، ننحط وننهار . . . وإذا لم يتدارك الغرب أمره بالرجوع إلى معنى التحرر الصحيح ، بالمحافظة على الخلق المستقيم ، المنسجم مع تقدمية المجتمع ، فلا مناص له من التدهور ، بفقد عناصر الحضارة ، على الرغم من الثراء ، والقوة ، والعلم . . وهذا ما ينذرنا به علماؤنا ، على ضوء ما يكشف العلم ، فى الحياة ، من أسرار ! . . . فعلى الشرق أن لا يخدع ، وأن ينزع إلى التقليد الأعمى ! . . . وإذا لم يكن من التقليد بد ، فليقلد الأمم ، فى مآتيها ، إبان نهضتها . . . لا فيما كان سبباً فى انهيارها . . . ولا فيما يخشى منه على انهيار حضارتها ، فى هذا العصر ، الملىء بالأخطار ! . . .

كريم : لا تقل ما لنا وللمجتمع ، يا قيس ! . . . فبالمجتمع نتكون ، إنسانياً ، وفيه نعيش ونحيا ! . . .

قيس : وبضغط المجتمع ، وبعده عن الطبيعة ، فى السلوك وفى التصرف ، تفسد الأفراد ، فيتعودون الخبث والرياء والنفاق ! ... أيجوز أن تربط الطبيعة والسماء بين قلبين ، وأن يحاول المجتمع ، بسخف بعض تقاليده ،

أن يفرق بينهما ؟ ؟ . . . (وكان فى نفسه أن يقول : بجهل بعض الآباء وسخفهم ، ولكنه أسرها لئلا تجرح هند !)

هند : لا يجوز لنا أن نتحدى المجتمع ، يا قيس . . . حتى فى تقاليده السخيفة . . . وإلا تنتقم منا الحياة . . . كما تنتقم من فاتنة ! . . . على ثرائها وثقافتها وجاه والدها ونفوذه ، لا يقدم شاب مهذب على طلب يدها . . . وهى لا ترضى بالدون من الناس . . . وتقابل ما تلوكه الألسن ، من عرضها ، بالنقمة ، وقد تعقدت فى نفسها ، فأخذت تحاول ، مكرهة متألمة ، تغرير الفتيات والفتيان ! . . وبدأت بأخيها ، فحولت جو بيتها إلى وضع شاذ ، ينسجم مع نفسيتها الفاسدة المنهارة . . . فلا يكون لأخيها عليها سبيل ! . . .

قيس : أيعتبر هذا انتقاما من فاتنة ، أم من المجتمع الذى أفسدها ؟ ! . . .

هند : إنك على حق ! ولكن من ينتقم به من مجتمعه ، يكون ، فى واقع الحياة ، شقياً . . . فينتقم به ، وينتقم منه ، فى آن واحد . . . وهذا من أسرار الحياة ! . . . وليس لنا أن نتخذ أمثال فاتنة قدوة لنا . .

قيس : عفواً ! . . . لا أريد فاتنة قدوة لنا . . . فإنها القدوة السيئة ! . . . ولكنني أرى غلو المتزمتين ، في مراعاة السخف ، في بعض التقاليد ، حمقاً وإفساداً . . . فلم نتعلم ؟ . . . ولم نتثقف ؟ . . . لنستمر في عبودية السخف والحمق والفساد . . . وعلى علم منا ؟ ! . . . ألا يذهب المجتمع الجاهل المفسود بمكتسبات الفرد المثقف ، العلمية والاختبارية ، فينحط لمستوى مجتمعه السخيف ، وتتوارى شخصيته ، ويضيع ما اكتسب؟ أنسيتم كلمة شيلر : « يمكن أن يكون الإنسان ، كفرد ، ذكياً عاقلاً ، إذا ما أخذ بمفرده.. ولكن متى اجتمع هؤلاء الأفراد ، لا يكوّنون سوى سخيف واحد ! ! ... »

هند : ولكن ، أتستطيع الحياة خارج المجتمع ؟ ! . . . وهل تتحمل أن تعيش فيه مرذولاً ، مهاناً . . . كحالة أي فرد يتحداه ؟ ! . . . _

كريم : مالنا ننظر إلى واقعنا بهذه العين المزورة ؟ . . . فمجتمعنا في تطور صاعد . . . ولا يعترض على حبكما ، في الأسرتين ، وبين الأصدقاء ، سوى شخص واحد ، هو الأب . . . أفلا ننتظر حتى نستميله ، وكلنا عليه لا معه . . . فلم كل هذا التشاؤم ؟ ! . . . ألم نصفق

لكما ، ونحن من صميم الأهل ، ونبارك زواجكما ؟!.
وفي مجتمعنا اليوم كثيرون من الذين لا يتحدون الطبيعة في الحياة ! . . .

سلمى : علينا أن لا نتحدى المجتمع ، على أن لا يتحدى المجتمع الطبيعة !. . . والمجتمع يشعر أن سعادته منوطة بانسجامه مع طبيعة الأشياء . . . ولهذا تحدث الانقلابات فيه !. . . وهي ، في السير الطبيعي ، للمجتمع ، تدل على حيويته وسلامته ! . . . فإذا ما جمد وخمل ، فذلك دليل على المرض . . . وشفاؤه إنما يكون في تحرير الشباب ، الإطلالة الجديدة على الحياة ، ورفع مستوى ثقافته ، وتوسيع آفاق تجاربه وخبرته ! . . . ليعي ، فيعرف كيف يثور ، إذا ما لزم الأمر ! . . .

الممرضة : ويجب أن لا ننسى أن خلقية المجتمع هي أسمى من خلقية الأفراد ، التي تكونه . فالمجتمع ، مهما فسد ، في في تصرفاته ، وانهار في مظاهر حياته ، سيظل أكثر حرصاً على الأخلاق السامية ، ولو نظرياً ، من الأفراد ، ولا سيما من الذين يستغلونه منهم . . . فلا يجوز مطلقاً لأي عاقل مهذب مثقف ، أن يسقط تقاليد المجتمع من حسابه . . . على كل من يحب الإصلاح أن

يراعى ، ما أمكن ، أحكام مجتمعه ، أولا ، وأن يعمل على رفع مستواه ، بتثقيفه ، وبنشر الفكرات الإصلاحية ، لتتركز تقاليده ، وتنسجم مع النهضة ! وهذا ميسور ما دامت الاختبارات العلمية تبرهن على أن فى المجتمعات ، على اختلافها ، ميلا للسمو ، يبرز فى الأزمات ! . . . وإذا ما كمن هذا الميل ، فى عهود الانحطاط ، فباستطاعة المصلحين استثارته ، إذا ما أخلصوا . . . وأنتما يا عزيزىّ قيساً وهنداً ، أراكما فى وضع ممتاز ، اجتماعياً ، فليس لكما أن تيأسا ! . . . فلا بد من الجهاد والكفاح ! . . . فالحياة لا تكون سعيدة إلا بهما . . .

كريم : ونحن كلنا معك ، ومع قيس . . . وخالك وأمك يؤيدانكما . . . ولا بد للأزمة أن تنتهى على خير ! . . والمهم أن نترك مجالاً لعمل الزمان ! . . . وإذا ما وجبت الثورة . . . فيجب أن تشتعل نارها ، فى الوقت المناسب . . . ولا أرى أنه قد حان موعدها بعد ! . .

بهذه المناقشات وأمثالها ، عاد إلى المجلس مرحه وبهجته ، وأكل الجميع هنيئاً ، وشربوا مريئاً مستساغاً . . . وأكثروا من النكات ، يوجهونها للحبيبين ، هند وقيس

على عادة الخلص من الأهل والأصدقاء ، فى مثل هذه الحالة . . .فساد الجو السرور والطمأنينة والانشراح !

* * *

قام الرفاق عن الطعام، وكانوا حقاً رفقاء ، وقد أخذتهم نشوة فرح ، لا تماثلها سوى فرحة العرس ! . . . وما لنا نتردد ؟ ألم يكن جو عرس حقيقى ، فى نظر طبيعة الحياة ، وبحكم السماء ، واهبة الحياة ؟ ! . . . ثم ألم تكن موافقة المجتمع بارزة ، فيمن مثله ، فى هذا المجلس . . . وليس الزواج ، فى حقيقته ، سوى الشكل الاجتماعى ، للحب الصادق السليم ! . . . ولم يبق ، ليستكمل هذا العرس عناصر طبيعته الاجتماعية ، سوى رضاء الوالد . . . فهل يرضى ، يوماً ، فيكمل الهناء ؟ ! . . . أم تسير الأمور على غير محورها ، بسبب عناد الوالد ، ووثنيته ، فيتضح لنا كثير من الأسباب التى تنتج العقوق . . . والشذوذ . والفساد فى الأفراد وفى المجتمعات ! . . . فتتوفر بذلك الشرور والنكبات والمآسى . . . والفواجع . . . رحماك ! اللهم ! ! . . .

ما لبثت هند أن نظرت إلى الساعة ، فاكفهر وجهها ، وقالت : قرب موعد رجوع الأب . . . الحنون ! (قالتها بابتسامة صفراء ، وألم ! . . .) ثم أردفت قولها بهذا السؤال : لم يسألنى أحد عن مجيئى فى هذه الساعة الميمونة ؟ ! . . .

سلمى : (كالمستيقظة من نومها) حقاً ، شغلنا، بلك ، عنك يا هند ! . . . ألا تخبرينا ، بحق قيس بكل ما وقع ؟

كريم : وإنه لقسم، لوتعلمون ، عظيم ! . . . بحق قيس ، يا هند ! . . . أفلا تخبرين ؟ . . .

فضحك الجميع . . . وضحكت هند . . . وكاد قيس، لفرط غبطته، يغيب عن الوجود ! . . . باسمه يقسم على هند ... وهند تضحك ، وتهيأ للبر بالقسم؟! هي سعادة الخلود . . . فى حب سيخلده الدهر ! !..

هند : منذ اضطر والدى إلى الصمت ، بسبب مرضى ، وتهيبه ممن حولى من طبيب وممرضة وخال وأصدقاء وأقرباء ، كلهم يشعرون معى ، أخذ يبث الرقباء والأرصاد ، حتى لا أتصل بقيس ، ولو بالتليفون !... وقد أصبح تليفون البيت ، راقباً ! . . . ولكنه لم يستطع مراقبة تليفون لاسلكى ، حى أبىّ مخلص، هو هذا البيت الصديق . . . فقد كان الصديقان العزيزان ، سلمى وكريم ، وهما من أكرم من يتمثل فيهما الإخلاص والوفاء والنجدة ، صلة الوصل بيننا . . . فأطلع منهما على أخبار قيس ، وهواجسه . وينقلان إليه رسائل قلب ، يتحرق، ويلتهب حمى ، تكاد تذهب بالحياة .

وكان لمواساتها أثر فعال فى انعاش روحى ، وتقدمى نحو الشفاء ! . . .

أصبحت اليوم ، وقد ضقت ذرعاً بسرير المرض ، وبالدار كلها ! . . . فرأت ممرضتى الحنون أن تستأذن والدى ، فأخرج لنزهة قصيرة ، لأن دور النقاهة الذى أنا فيه ، يقضى بذلك . . . وأيدها الطبيب ، فى زيارته الصباحية ! . . . فارتبك الأب ، وأسر إليهما بأنه يخشى أن أجتمع بقيس ؟ ! . . . ولم يوافق ! . . . ولكنه ما لبث ، وقد أنذرته هذه السيدة الكريمة بسوء العاقبة ، وحملته التبعة ، أن تراجع ، مشترطاً أن تصحبنى هى ، وأن تكون النزهة فى هذا البيت الصديق ، لا أتجاوزه ! . . .

سلمى : ما أكرم الحياة ، وما أوفر عجائبها ! ! . . . لئلا يجتمع الحبيبان ، ترسلهما الحياة ، برغبة الأب الموسوس ، فى معارضته ، إلى حيث يلتقيان ، ويؤكدان ما عاهدا الحب عليه ! . . .

كريم : هكذا يقع الجاهل المغرور فيما يخشى من حوادث . . . وهكذا تنصف الحياة كل مظلوم صادق . . وهكذا يكافأ المخلصون فى حبهم ! . . .

هند : وأراد أبى أن يستغل الفرصة ، فاشترط شرطاً ثالثاً ، وهو أن يكون غيابى عن البيت ، مدة بقائه عند نسيب بك فى تلبيته لدعوة الغداء ، فى دار ذلك الوثن ! ! . . . ثم اشترط شرطاً رابعاً ، وهو بيت القصيد ، من شروطه كلها . . . أن يوصلنى ، إلى هذه الدار الصديقة الحنون ، بنفسه ، وأن يعود بى بنفسه ، إلى البيت ! . . .

سلمى : وما هى أهمية الشرط الأخير ، حتى يكون بيت القصيد؟!

هند : أن أدهش بسيارة نسيب بك الجديدة وقد أرسلها ذلك الصنم المأفون ، لتنقل ضيفه إلى داره . . . ولذلك كان كل الطريق يتكلم عن عظمة تلك السيارة ، وغلاء ثمنها ، وأنه ليس مثلها ، عند غير الزعيم . . . وأنه سيهدى مثلها إلى ابنه ، فى حفلة زواجه . . . مسكين أبى ! . . إنه يتوهم أن الفتاة ، إنما يغريها أن تفتن بالسيارات ، أو القصور ، أو النفوذ . . . ولا يدرك لعامل الحب معنى ! . . .

سلمى : إنه لم يدرك ، مع الأسف ، درجة وعى هند ، فى شبابها . . . ولا يأبه لما ينتج عن وعى الشباب من انقلاب ، وتطور ، فى التفكير ، والشعور ، والنزوع . . .

وما بلغ الحديث هذا الحد ، حتى سمع صوت بوق السيارة ، فاسرعت هند قائلة : إلى اللقاء جميعاً ، أخاف أن أتأخر ، فيصعد الطاغية ! ! . . . والتفتت إلى قيس وأنذرته بأن لا يغادر منزل سلمى وكريم ، قبل ساعة ، على الأقل ، خوفاً ممن يكون قد بث ذلك الوالد ، في وسوسته ، من رقباء وأرصاد ! . . .

وقد عبرت قبلة ثانية ، تبادلها الحبيبان ، عما في نفس كل منهما ، من تحرق ، وتوله ، وأمل ! . . .

٨

الفاجعة ! . . .

لكورنيش البحر ، فى بيروت ، مناظر رائعة أخاذة ، جعلت أنيساً يفضل السكنى ، فى أجوائها ، على دار نشأ فيها ، فى عين المريسى ، قريباً من دار صخر ، أبى هند . فابتنى فى ذلك الحى الجديد ، حى كورنيش البحر ، دارا حلوة ، تألفها هند ، وتأنس بالحياة فيها ، فلا يمر أسبوع ، لاتنعم فيه بمشاركة عائلة خالها حياتهم ، يوماً أو أكثر . وهى أيام تشعر فيها بسعادة وغبطة . . . يزيد فى إشعاعهما ، فى نفسها ، ما تلقاه من خالها ، ومن زوجته ، من تبادل فى الشعور ، والبهجة ، والمرح...

كان لهند فى تلك الدار غرفة خاصة ، عرفت عند الجميع ، بغرفة هند . ولشدة تعلق خالها ، وامرأته ، بها اختارا لها أجمل غرفة فى الدار ، وبذلا ، فى تأثيثها ، ما جعلها تشبه المتحف ، برياشها الفاخرة ، وفرشها النفيس ! ... فلا عجب إذا ما وجدت

هند فى تلك الدارة متعة وأنساً ، وبهجة وحبوراً ! . . . ولا غرابة إذا ما فكرت هند بدارتها هذه ، وبغرفها فيها ، كلما شعرت بضيق فى صدرها ، أو ألمّ بها ما يكدر صفو النفس أو الخاطر ! . . .

لم يكن قيس ليجهل هذه الحقائق ، وقد أطلعته هند على دخائل ذاتها ، ومظاهر حياتها ، ومتعها . . . وعلى ما تكنه ، فى أعماق فؤادها ، لخالها ولامرأته ، من حب وحنين ، ومن إجلال وتعظيم . . . وعلى ما تعلق على حبها من آمال . . . وآمال ! . . فلم يترك السانحة تفوته . . . فكل ما للحبيبة به صلة ، فهو حبيب ! . . . فكيف إذا ما كان خالها ودارته ؟ ! . . وهل يستطيع القلب أن يجفو دارة ، لهند ، فيها حجرتها . . . أو أن يبعد عنها ؟ ! . . فما فتئ قيس ، منذ انبثق حب هند ، فى نفسه ، وبرز ، يحاول التقرب من خالها ، حتى نجح أخيراً ، وأصبح يجد فى تلك الدارة أنسه ، وسنده ! . .

وفى صبيحة يوم ، وهو العاشر ، من أيام مضت على اجتماعه بهند ، فى البيت الصديق ، اصطبح قيس ، فى تلك الدارة ، مع أنيس وزوجته . أو قل ، بلغة الشعور والحب : مع خاله ، وامرأة خاله ! ... فوجد عندهما من العطف والتفهم ، ما ملأ قلبه

بهجة وسروراً . . . وما أفعم نفسه ثقة وأملا ! . . . فكان ، وهو يسير الهوينا على رصيف الكورنيش ، بعد انتهاء الزيارة ، وخروجه من دارة الخال ، يجد نفسه أخف من النسيم ، يسير فى الهواء ، خبباً ، لا على وجه الأرض . . . وكم للآمال ، فى الأحلام ، من تأثير فى تصورات المرء ، وفى تخيلاته ! ! . . . ولكنها ، على مافيها من روعة ولذة ومتعة ، قد تعرض الإنسان ، ولاسيما فى شبابه ، إلى أشد الأخطار عنفاً ، إذا ما وسّعت الشقة ، بينه وبين واقعه ! ! . .

كان قيس ، على ذلك الرصيف ، يتهادى ، بنشوة الظفر.. والانتصار . . . فيتنفس ملء رئتيه ، ويستعلى ، بخيلائه ، على البحر والجبل ، وعلى الشاطىء والأفق ! . .. وعلى الكون كله !... وهل من ظفر ، هو أشد إثارة ، لخيلاء النفس ، من ظفر المحب بحبيبته ، ولو توهما . . . فى الخيال ؟! . . . إن للخيال أجنحة ، قد يرتفع بها الإنسان ، فى لحظات انفعالاته ، إلى أجواء من الأوهام ، قد تسرف فى بعدها عن الواقع ! . . . فينشط هو فى البعد عن حقائق الوجود . . . ولكن . . . مهما امتد أمد البين ، بينه وبين واقعه . . . فإن للواقع قدرة جذب ، لا يتعذر عليه ، معها ، إعادة كل متمرد إلى حظيرته ، قسراً .. إذا لم يفطن ذلك المتمرد إلى أن استمرار الظفر ، منوط ، بالتزامه جانب الاختيار ! ! . . .

وهكذا . . . فما كاد ، صاحبنا قيس ، يسير خطوات ، من خيلاء واستعلاء واطمئنان ، على رصيف ذلك الكورنيس ، بين البحر والأشجار ، حتى لفت نظره شبح قادم ، من أول الرصيف ، من جهة عين المريسى ، يمشى مشية الخائف المذعور ، يتلفت وراءه ، كمن يرتاب بأن يدركه ما يتخوف منه . . . حدق قيس إلى الشبح القادم بنظره ، فخفق قلبه وهلع ، وما لبث أن عدا مسرعاً جهة الشبح ، وقد تحطمت أجنحة الخيال . . . وانهار الوهم المجنح . . .. إنها هند ! ! . . . تسير خائفة وجلة . . . وليس فى هندامها ، ما ألفه من ترتيب وأناقة ونظام ! . . ولم يكن ذلك كله إلا ليزيد ، فى عينيه ، روعة الجمال ، فى نظراتها الحائرة . . . وحلاوة الحس ، فى رشاقة حركاتها المضطربة . . . وما أبدع ما فى نبرات صوتها ، فى هديل الفزع ، من رقة ونعومة وحنين ! ! . .

هند : قيس ! . . . أنت هنا ؟ ! . . توار ! . . توار ! . . . ولا تظهر لأحد . . . إلا حين أرسل فى طلبك ، فى بيت أملك ! ! . . . حبيبى ! . . حياتى . . أصبحت حياتنا فى خطر ! . . فلا تأمن لأحد ! ! . . ماأسعدنى ! أراك وأنذرك ! . . . حياتك ، وسعادتك . . . هما كل ما أفكر فيه . . . وما فتئنا ، منذ لمس حبك

قلبي ، كل همي . . . قيس ! . . انج بنفسك ! . . .

قيس : ما بلك . . . يا حياتي ؟ ! . . ماذا جرى . . . بعد ذلك اللقاء . . . فى البيت الصديق ؟ ! . .

هند : قلت لك : توار . . فما لك تزيد ، فى رعبي ، فلا تنجو بنفسك . . . وإنقاذك أريد ؟ ! . . .

قيس : (وهو آخذ بيدها ، ليجلسا معاً على مقعد حجرى ، فى ظل شجرة ، أمام البحر . . .) حياتى ! . . . أتكون لى نجاة إلا بقربك... وهل ينقذنى ، إلاّ أنت من الحوادث والأخطار ؟ ! . . بحق قيس ، على قلبك . . . إلا أخبرتنى ، يا حياة الروح ، بماجرى ! !... ومم تخافين ؟ !.. فلست بالجبان !.. وما كان حبك إلا ليزيدنى جرأة وشجاعة ، وإقداماً .. سكنى من روعك . . . فلست بالطفل ، يهاب الموت ، أو يخشى الحوادث ! ! . . فالحب يتحمل كل شيء . . . ولا يتراجع أمام الأخطار ! . . وليس بمحب صادق من يتهيب ، فى حبه ، الحوادث ! ! . .

هند : إن أبى ، ومن ورائه زعيمه ، يتهددانى بقتلك ، إن لم أقبل باابن ذلك الوحش قريناً . . . أفهمت الآن سبب هلعى وارتياعى ؟ ! . . .

قيس : ومتى أنذرت بذلك ؟ . . . ومن أنذرك ؟ . . . أخبريني يا هند بكل ماجرى . . . ولن تراعى ! ! . . (قالها وهو يبتسم ابتسامة الساخر المطمئن) وأردف قائلا : أيعتقد هؤلاء أن التعلم يعنى الجبن والخور ، وأن الفتوة وقف على الجاهلين ؟ ! . . فلا (قبضاى) بين المتعلمين ! . . . ألا خاب فألهم . . . فلسنا ، شبان اليوم المتعلمين ، من تخور عزائمهم ، فيجبنون عن مواجهة الحوادث ، ويهابون النذير ! . . أصبح ما نتعلمه حرثا وثقافة ، لا ثرثرة وكلاماً . . . فلا يزداد ما فى إنسانيتنا ، من جرأة وشجاعة ، وحب للمغامرة ، إلا نمواً وقوة وانسجاماً ! . . نحن من نعرف كيف يحافظ الإنسان على كرامته . . . وكيف يدافع عن فكرته . . . وكيف يحمى حبه وشرفه ! . . . ألا ساء ما يتوهمون ! . . .

هند : لا تعرض نفسك ، يا حياتى ، للخطر ! . . فسأتدبر الأمر مع خالى الآن ، وقد قررت أن لا أبرح له منزلا ، منذ اليوم ، إلا بحل المشكلة ! . .

قيس : (وهو يبتسم ابتسامة الهادئ المطمئن) والآن ، ألا تريدين إطلاعى على ما جرى ؟ . . إننى آت من بيت

الخال الآن . . . بعد أن نعمت بحنوه وعطفه . . .
وسعدت بموافقته ! . . .

هند : منذ التقينا فى البيت الصديق ، وصحتى فى تقدم محسوس.
وقد اعتقد الجميع ، فى الأمس ، أننى شفيت ،
فلم يعد ثمة حاجة للممرضة ، ولا للطبيب ، فصرفا ،
وفكر خالى فى أن أنتقل لدارته ، لأقضى فى حجرتى
الجميلة ، هناك ، أيام النقاهة . . . فأبى والدى ،
مقسما ، وهو ماسك بشاربيه ، حسب عادة القبضايات
فى تأكيد القسم ، بأنه لن يترك وسيلة للترفيه عنى . . .
وأنه لن يكون منه مايسىء إلى هند . . . حياته ! . . .
فخدع خالى ، بعد أن استوثق بأن والدى سيسمح لى
بقضاء شهر ، فى دارته ، بعد بضعة أيام . ووعده
والدى ، زيادة فى طمأنته ، ولدرء شروره ، بأنه سيحل
مشكلة زواجى بابن الزعيم ، فى إقامتى فى دارته . . .
وعلى هذا ودعنا خالى ، وانصرف ! . . ثم ذهب
والدى إلى قصر الوثن ، ليقوم بمراسم العبودية ، على
عادته ، بعد أن أوصى أمى بأن لا أبرح البيت مدة
غيابه : وقد خضعنا لأمره ، حتى لا نكون أول من
يبدأ بالإساءة !. . . ولكنه لم يعد إلينا فى المساء ،

إلا ليعيد الحديث ، ملاطفاً ، فى البدء . . . متدرجاً
بالجفاء ، حتى احتدم غيظاً ، وأنذر بأنه قرر ،
مع زعيمه ، محو قيس من الوجود ، إذا لم أخضع
لأمره ! . . . (وهنا تنهدت هند ، وذرفت عيناها
دموع الحزن والألم ، وقيس يلتقطها بمنديله ، واجماً)
ثم أتمت حديثها قائلة : فلم أحر جواباً . . . ويظهر
أنه وجد فى سكوتى إقراراً . . . فما أصبح اليوم حتى
أنذرنا بقوله : أنا ذاهب لآتى بالزعيم وابنه ، وبالمأذون ،
ليعقد العقد . . . فينقذ قيس من موت محقق . . .
فما خرج ، حتى تركت الدار ، على ما ترى ، ووجهتى
الدارة ، وأنا لا أدرى كيف أراك ؟ ! . . فما أرأف
العناية الإلهية بقلوب المحبين ! . . ولكن لم يصبح
ما هو جدير بأن يكون هناء للإنسان ، مصدراً لشقائه . .

قيس : خففى عن نفسك ، يا حياتى ، وخفضى من غلوائك ،
ولا تجزعى على ! . . فلست بالذى يسهل أكل لحمه !
هند ألا ترين هذا الزورق ؟ . .

هند : إنه شبيه بذلك الذى أوصلنى إليك ، فى الحلم ،
لأنقذك . . . وهنا استغرقت هند برهة ، فى تأمل
لطيف أعاد إليها ابتسامتها الحلوة ، بإشعاع الثقة

والأمل ، ثم قالت : هذا هو البحر ، وهناك ،
وأشارت إلى جهة بيت أبيها — (فى عين المريسى ،
وهو حى متصل بحي الكورنيش) — الشرفة ! . . .
ولكن أين القمر ؟! . . تلك ليلة ، امحّى فيها العالم،
كله ، حولى ، ولم يبق سواك ، قيس ! . .

قيس : وذلك الحرش ، أمام دارنا ، كم أتمنى أن أنغمس ،
معك ، فى ظلاله الآن ، عند ما نزلت إلى من
عليائك ، على أشعة ضوء القمر ، وكانت مسرتى
الذاتية ، فى داخلى ، مصدر إشعاع سعادة ، تستمر
إلى هذه اللحظة ... ولن تقوى الحوادث على إزالة مصدر
ذلك الإشعاع ، لأنه حب صادق صحيح !. . .
وما تذكر قيس تلك اليد الخاطفة ، حتى تملكه الرعب ، فوجم ،
ثم افتعل المرح والانطلاق ، خوفاً على هند من سلطان
الوهم !! . . فقال : وما رأيك فى أن نركب هذا
الزورق الآن ، ونهيم به على وجهنا ، فلا نقف إلا عند
مرفأ يؤوينا ، فنشرب كؤوس الحب والحياة ، بعيدين
عن الرقباء ، وعن صخر ، وعن وثنه ؟ ! . . .

هند : أوجادٌ أنت فيما تقول ، قيس ؟ ! . . أترضى أن
يجرح حبنا بتصرف ، كهذا ، يشين السلوك ؟ ! . .

إن كنت ترضى ، فلن أعارض . . .

قيس : حاشاك . . . هند . . إننى مازح ، بحق حبك ! ! . .
ثقى أن قيساً لا يرضى إلا بما يزيد هنداً سمواً ،
ورفعة ، وشرفاً . . . فلن يجرؤ ، يوماً ، على الإقدام على
أى تصرف ، قد يجرح عفاف الحب ، وطهارته ! . .
ولو فيما يتوهمه الناس من عفاف مفتعل ! . . . أريد
حبى طاهراً نقياً ، فى نظرى ، وفى اعتبارات المجتمع ،
مهما كان سخيفاً ، فيما يذهب إليه من تقاليد ! . . .
يكفينى ، فى هذا الكفاح ، هذه النظرات الزاخرة ،
بمعانى الحياة ، وروحها . . . فإنها تلطف الآلام ،
وتبعث فى نفس قيس ، اطمئنان السعادة . . .

هند : ما أعظم الحياة . . . وما أروعها . . . فى تكامل
المسرات فى آلامها ! . . . وما أعجب النواميس ،
نواميس الحياة ، تتوالى ، فى النمو والبروز ، فيتحقق
بذلك وعى الشباب ! . . . فعبقرية الجنس ، فى الفتاة
تبعث فى نفس الفتى ، عاطفة الحب ، وتنميها . .
فيعى لذاته ، بوعى فتاته ! . . ولكن لا تكاد الفتاة
تمتلك فتاها ، حتى يمتلكها فيبرز ضعفها ، فى حبها . . .
ولا يحميها من العثرات إلا ما ينتفح فى نفس الحبيب

من شهامة ، ونخوة ، ونجدة . . . جماعها المروءة . .
فاهنأ . . . قيس . . بمروءتك . . . كما أهنأ بها أنا . .
وشكراً لك . . . أيها الحبيب ! . . . ثم وداعاً . . .

قيس : تقولين : وداعاً . . . يا هند . . .

هند : فلنقل : إلى اللقاء . . . ثق أننى لن أكون لغيرك . . .
واذكر كلمتى لك ، فى يوم كنت فيه مسرفاً فى
تفاؤلك : لا ضمان على الزمان ، فلابد من الحذر ،
والاعتدال . . . فإلى اللقاء . . .

وتبادلا قبلة ، لم تكن أضعف نشوة ، من تينك القبلتين...
ولكن رافقها ، فى نفس قيس ، شىء من وجوم وارتياب
واضطراب . . . إذ ذكر معها تلك اليد . . . وقد
خطفت هنداً ، فى ظلال أشجار ذلك الحرش . . .
فبكت نفسه ، والتاع قلبه ، تشاؤماً ! وحنيناً ! . . .

* * *

قصت هند خبرها على خالها ، وهى تجهش بالبكاء . . .
فآلمه ما تمنى به هند الأبية ، فى حبها ، من نكبات . . . وأحزنه
ما هى عليه من هزال وكروب وانكسار . . . فطيب خاطرها ،
وطمأنها . ونصحها بأن ترتاح فى غرفتها . . . فاستلقت ، فى
سريرها الناعم ، وبجانبها امرأة خال تواسيها ، وأم ، ما لبثت

أن انضمت إليها ، مؤكدة أنها لن تعود لبيتها ، ما دام صخر على رأيه فى أمر هند ، وزواجها . وهكذا هز صخر كيان عائلته هزة عنيفة ، بعناده ، وجشعه ، ووثنيته السمجة ، فابتعد عنه أقرب الناس إليه ! . . وغرس فى نفوس ، كان يسعده أن يتمتع بحبها وعطفها ، نفرة ، تعقّد بها مركبات النقص، فى الأفئدة . فتبرز ، فى فاعلياتها ، جفاء وحقداً ، ونقمة ، قد تبلغ العداء والبغضاء . . . والعقوق ! . . .

مكث صخر وحده ، فى قاعة الاستقبال . . . يفكر فى أمر هند ، وفى مخرج ينقذ هذه الحوادث ، من أن تنقلب مأساة ، أو فاجعة . . . ونسى ما عليه من أعمال . . . وعند ما ذكره الكاتب ، تليفونياً ، بالأعمال التى تنتظره فى محل عمله ، أجابه بأن يترك كل شىء إلى الغد ، لأنه فى شغل شاغل عن كل عمل . . . ولكن ، ماذا يخبئ الغد ؟ ! . .

وفيما كان أنيس يتأمل ، ويفكر، محللا ، مركباً . . . مقارناً بين حادثة أخته مع صخر ، وما تتعرض له بنتها مع قيس . . مستوحياً الحلول من حوادث يعرفها . . . فوجئ بزيارة صخر . وما كان لهذا أن يستأذن على ابن عمه . . . فصخر من أهل البيت ، يأتيه متى شاء . . .

دخل صخر ، وعلائم الغضب تعلو وجهه . . . فقد كان

مكفهراً ، كالح الوجه ، مربّده . . . يتطاير من عينيه شرر الشر ! وما وقعت نظراته التائهة على ابن عمه أنيس ، حتّى بادره ، بحدة ، قائلا :
أعلمت أن هنداً قد أبقت ، ولعلها أعادت سيرة أمها ، فالتحقت بقيس ، ليهرب بها ، وتهرب به؟ !.. . ويظهر أن أمها هى التى مهدت لها السبل ، وما لبثت أن لحقت بها ! . . . أهذا ما أردتنى عليه ، حين أصررت علىّ بتعليمها ، يا ابن العم؟ !... يجب أن نجد حالا هؤلاء الآبقين ، جميعاً ، وأن نقتلهم ، لنمحو بذلك وصمة العار... إنه عار علينا جميعاً ، يا أنيس ! . . . ولا يستطيع فتّى شديد (قبضاى) مثلنا أن يتحمل ذل العار . . .
أدرك أنيس أن صخراً إنما يحاول تهييجه وتحميسه ، وإثارة انفعاله ، ليشركه فى جريمة فاجعة . .. فابتسم ، مطمئناً ، وفاجأ صخر بقوله :
ألا تحيي بالسلام ، قبل الكلام ، يا صخر ؟ ! . . .

صخر : وهل لدينا وقت لسلام . . . أو لكلام . . . يا أنيس ؟
إن أمرك غريب حقاً . . . إنى أراك ساكناً هادئا . . . لم تحرك غضبك ابنة أخت تأبق مع أمها ، لتلتحقا بشاب غريب . . . فتلحقا بنا العار ، وتثلما شرف الأسرة ! . . وهو جرح لا يلتئم إلا بالدم . . .

فليُقتل قيس ، إذا كنت تحرص على حياة هند وأمها ! ! . . وأنشد بزهو واعتزاز :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتّى يراق على جوانبه الدم! .

أنيس : هون عليك ، يا صخر ! . . فهند ليست جارية مملوكة لتأبق . . . إنها أرفع مما تظن . . . إن هنداً هنا ، فى غرفتها ، وأمها بجانب امرأة خالها ، تواسيانها ! . . أوفيت بما وعدتنى به ، وقد أمسكت بشاربيك ؟ ! . . أهذا هو شأن رجال الفتوة الأشداء ؟ ! . . .

صخر : إذن هند عندك ، ولم يهرب بها قيس ؟ ! . . (وجلس مشدوهاً ، وقد خاب تدبيره)

أنيس : إن من أفاد من علمه ، كهند وقيس ، لا يتآمران على الهرب ، ولا يستخفيان ! . . وغمز بعينه غمزة ساخرة ، فهم صخر ما يعنيه ، فخفض رأسه ، وقال :

صخر : إذن اسمح لى ، يا أنيس ، أن أعود بهند وبأمها إلى البيت ! . .

أنيس : وما الموجب لهذه السرعة ؟ . . أفى البيت من ينتظر ؟ . .

صخر : كلا ! . . فإننى لم أجد البك ولا ابنه ، فى القصر ! .

أنيس : وما شأنهما ؟

صخر : (وقد تلعثم ، إذ أدرك أن ذكر البك كان فلتة لسان) لا شيء ! سوى أنى أردت أن أجمع بين هند وجميل بك ، بوجود أبيه ، علها تلين ! . .

أنيس : وهل كنت على موعد معهما ؟

صخر : (مرتبكاً) لا ! . . نعم !. . فأنا دائماً على موعد مع سيدى البك ! . . .

أنيس : كفاك تمويهاً ، ياصخر ! . . فإنك قد نقضت ما عاهدتنى عليه.. . وزدت على ذلك بأنك قد توعدت ، وتهددت . . .

صخر : عزيزى أنيس ، إننى أداور هنداً بمختلف الأساليب لتقبل . . . إن البك مستعجل . . . ولا أستطيع أن أترك ذلك المشروع الكبير . . . ويسر البك أن تشترك ياأنيس، فى مشروعه. . . فينالك ربح وفير !...

أنيس : أترشونى لأوافق على بيع وحيدتنا هند، بيع السلع ! . . . أو بيع العبيد ، فى سوق النخاسين ؟ . . . يا لك من سخيف أحمق ! . .

صخر : إنك تهيننى يا أنيس ! . . ما تعودت أن أتحمل الإهانة من أحد ! . .

أنيس : كفاك عتواًّ ، تتصنع فيه الغطرسة والصلف . . . وهل

أنت سوى عبد ذليل ، لوثن طاغية حقود ، شأنه أن يسمم بك ، وبأمثالك من الأتباع العبيد ، حياة الأبرياء من البشر ، أمثال هند وقيس ، فيفسد ما بين الناس ، ويفسد المجتمع ؟ ! . . والله ، لن تخرج هند ، ولن تخرج أمها ، من هذه الدارة ، منذ هذه اللحظة ، إلا بإنهاء القضية ، على ماتحب هند ! . . وتختار ! . .

* * *

واشتد النزاع بين صخر وأنيس ، وتبادلا قوارص الكلام ، حتى سيطرت الحدة على صخر ، وملكه الغضب . . وغلبته أعصابه ، فى أشد حالة انفعاله ، فشهر خنجره ، يلمع فى حده بريق الموت ، وهجم على أنيس يحاول طعنه ! ! . . ولكن أنيساً ، وكان لا يزال مالكاً أعصابه ، استطاع ، برشاقة الفتى الشديد ، أن يمسك بيد صخر ، وأن ينتزع ذلك الخنجر . . . ثم أجلس صخراً ، وهو يقول : ماهكذا يتصرف من يزهو بفتوته . . أيشهر الفتى الشديد سلاحه على أعزل ؟ ! . . أما كان من واجبك ، أى صخر ، أن ترمى سلاحك ، فى منازعتك لفتى مثلك ! . . لو كان نظام الفتوة نافذاً ، اليوم ، لاضطررت للاعتذار عارياً . . .

وفى هذه اللحظة ، أعلنت الخادمة مجىء سعيد ، صديقهما ، وانطلقت صرخة شديدة من هند ، ولكن دخول سعيد صرفهما عنها . . . وسلم سعيد . . . ولم يستقر به المجلس . . . حتى

التفت إليهما قائلا : أسمعتما بالخبر ؟ ! . . فنظرا إليه معاً ، نظرة المستفهم . . . فألقى إليهما بجريدة ، كان يحملها ، وأشار إلى موضوع فيها ، فإذا هو إعلان ، يتبرأ فيه نسيب بك من ابنه جميل ، ويرفض دفع ديون الناس عليه . . . فشده صخر ، وكاد يجن عندما علم من سعيد أن جميلا ، فى السجن ، لتغريره بفتاة ساذجة ، ثار لها أهلها ، وهاج الناس . . . وأن نسيب بك ، رهن أملاكه ، ليفى ديونه ! ولذلك يرفض دفع ديون ابنه المتراكمة . . . ويتبرأ منه ! . . .

فدهش صخر ، وكاد لا يصدق سمعه ! . . . ولكنه تذكر أن زعيمه كان غائباً عن قصره ، فى الموعد المضروب لعقد زواج جميل على هند . . . وأن جميلا وفاتنة ، كانا غائبين ، أيضاً . . . وأن الاضطراب ، والارتباك ، والحيرة . . . كانت جميعها بارزة على وجوه الخدم . . . وما كانوا يعلمون كيف يجيبونه على أسئلته . . . تذكر ، فى تلك اللحظة ، ذلك كله ، فازداد حيرة ، وارتباكاً . . . ثم تذكر ماله من مال ، فى ذمة نسيب بك ، على حساب المشروع « العظيم » ! . . وأنه تكتم فى تسليفة ذلك المبلغ ، لشدة ثقته به ، وبابنه . . . وحفظا لسرية الأعمال ! . . .

وفى غمرة ألم ، يضطرب بين الشك واليقين ، والندم

والاطمئنان ، التفت إلى ابن عمه وقال : أنيس ! . . أكاد لا أصدق ما أقرأ ، وما أسمع . . . إنها لدسيسة على ذلك الرجل العظيم ! . . ولكن لمَ لم أجد أحداً فى القصر . . . ولم بدا على الخدم ذلك الاضطراب ؟ ! . . عفوك أنيس . . . ابن عمى . . وغفرانك . . . أكاد أجن ، حيرة واضطراباً . . . أكنتَ حقاً ، ذلك الحب المخدوع ؟ ! . . أنيس ، لا أدرى ماذا على أن أعمل ! ! . . إننى أشعر أن عاطفة الأبوة ، وحنوها ، يهزان كيانى ، الآن ، لعلى كنت ظالما . . . ثق أننى لن أعارض هنداً ، بعد اليوم . . . وأننى أترك أمرها نهائياً إليك . .

وما كاد ينادى هنداً ، ليعلن لها ما قرر من ترك أمرها لحالها ، حتى سمع صوتاً من الداخل يقول : أسرعوا بطلب الطبيب ، فهند فى غيبوبة ، منذ هجم صخر على أنيس ، ولم تنجح وسائلنا فى إيقاظها ! ! . . .

وما أتى الطبيب إلا ليعلن أن هنداً ، قد فارقتها الحياة . . .

٩

صوت من الضريح ! . . .

فى هدأة من الليل... وسكونه !.. وفى رهبة جلال الموت . . . ووجومه ! . . شهدت المقبرة إنساناً ، يسترق الخطى . . . متسللا بين القبور ! . . . إنه شاب يستهدى ، بنور البدر ، ضريحاً ، لم يجف بعد ، ما هيل عليه من تراب ! . . .

لم يكد المتسلل ، المتهيب ، يتبين معالم الضريح . . . ولم تكد تبلغ خطاه حرمه . . . حتى خفق قلبه ، وجفت حنجرته ، وأربد وجهه . . . فاصطكت ركبتاه ، وخارت عزائمه . . . فألقى ما كان يضم إلى صدره ، بيديه ، من باقات الورود ، على تراب يرتفع قليلا فوق رمس . . . واستولى ذهول . . . وجمود . . . انتهيا ، فى لحظة من زمن ، إلى دوار عنيف ، أخذ برأس الموله ، فصرعه . . . وأكبه على وجهه . . . يستنشق عبير تراب ذلك الضريح ! . . . وأريجه ! . . ويرطبه بدموع سخية ، سخينة ! . . وما استعاد المتيم وعياً ، يستطيع معه الكلام ، حتى انطلق يندب حباً ، غيبه الردى . . . فسحقاً للظالمين ! . . .

وذكرى الظالمين ، أثارت ذكريات ، فى تأملات الخيال ، فسالت دموع فى عبرات ، عبرت عنها ، روح قيس ، بهذه العبارات :

توهجت رائحة الطيب، فى تراب اللحد . . . إنه أريجك، يا هند ! . . . ما كان وهمى يرتفع إلى الظن بأن يغرم جماد التراب . . . ويحنو . . فيتضمخ بالطيب الحبيب ! . . . لعله حن ، حنين المتيم الموله ، فى لوعة الشوق . . . فذكرت يا هند قيساً . . . فكان التراب . . . تراب الضريح . . رسول حب . . يهمس طيباً . . . رسالة الأريج . . . أريج الغرام . . . أريج الهيام . . . أريج الصفاء . . . أريج الحياة ! . . .

تراب عذول . . . كذاك السحاب ! . . . وبالعبير ! ! . . عبيرك ، يا هند . . . صار العذير . . . كذاك الأثير ! . . . فما أروع الحب، يجترح العجيبة ! . . . وما أشد إبداع الحياة، تفتعل المعجزات . ولو بالخيال . . . خيال الوجود . . . خيال العدم . . . ليلهو الملوّع . . . ويتأسى الحزين . . . فيغدو حنيناً . . . ويغدو ارتقابا ! ! . . .

هند ، يامنى القلب ! . . . ويا روح الحياة . . . أتتلك الورود ! . . . ألم تكن الوردة ، عندك ، فى حظوة الاصطفاء ، تلازم صدراً ، يمنحها الأريج . . . والنضارة . . . والحياة . . .

فتزهو اختيالا ، على سائر الزهور؟ ! . . وها هى ذى ، لا تزال . . تخنو ، لتزهو ، وتختال . . . على سائر الزهور مدى الدهور ! . . . فى صدر لحد ، ليس كسائر اللحود !. . . إنه لحد هند . . . سر الوجود . . . وسر الحياة ! . . .

هنئتم ، يا ساكنى اللحود . . . بجوار هند . . . أنس الحياة . . . وأنس الوجود . . . وأنس العدم ! . . . هاهى ذى الأرواح ، تصفق من طرب لمقدم ملاك الطهر ، ملاك العفاف. ثوى فى عالم الموت ، هذا الملاك ، فثوى معه أنسه . . . وطرد من اللحود وحشة القبور . . . فلجأت إلينا ، نحن الأحياء . . . فاستوحشت الحياة . . . وأنس العدم ! . .

وأنت ، أيها البدر ، مابلك اليوم ؟ ! . . أراك مكفهراً ، مبهوتاً . . . على الرغم مما تشع . . ولا عجب ! . . . أنسيت ليلة استقرت فى أرجائك هند ، فلم تعد العين تبصر ، فيك ، سواها . . . ألم تبهرك هند ، فأطللت على الكون ، معجباً . . . تتهادى ، فى بهاء ، استعرته من بهائها ! . . . وفى جمال . . . أمدك بالفتون . . . هو جمالها ! . . . وفى جلال . . . خشع له الكون ، لأنه جلالها ؟ ! . . .

إيه . . . يا بدر ! . . . أتنسى ليلة ، تلاقت ، عندك ، فيها ، النظرات ؟! . . . فمهدت طريقاً لذاك اللقاء ! . . .

وما أروع ذاك اللقاء ! .. لقاء الحنين . . . لقاء التناجى . . .
لقاء انبعاث . . . تفجر فيه . . . عميقاً . . . عميقاً . . . معين
الحياة ! . . . فأين اللقاء ؟ ! . . . آه . . . وأين الحبيبة ؟ !
وأين الحياة ؟ ! . . . أصحيح أن كل شىء قد انتهى ؟ ! . . .
ولم يبق للنفس ، إلا أن تتشوق ، وتتوق ! . . . بحنين . . .
واحتراق . . . ولوعة . . . وأنين ؟ ! . . . إيه يا بدر ؟ ! . . .
ما لك لا تحير . . . ولا تجير ؟ ! . . . أترتاح للوعة ، تلهب
القلوب ، قلوب المحبين . . . أم تهزأ منا . . . إذ تجهل قلوبنا ..
فى هزة الخفقان . . . صروف الدهور؟! . . .

أيعلم هذا اللحد، يا بدر، يا قمر المحبين . . . المدلهين . .
المولهين . . . ويامستقر أسرارهم . . . أى قدسية لزمته . . .
وأى نورانية تشع عنه . . . بعدأن أصبح مثوى، ترتاح فيه نفس،
هى أزكى النفوس . وروح ، هى أصفى الأرواح ، وجسم ،
هو أطهر جسد ! .. . بين البشر؟ ! . . أيعلم هذا اللحد أنه
أصبح ، منذ حلت فيه هند . . . مقراً لكل ما كان يهتز له
قلب قيس . . . من أمان وآمال ؟ ! . . . ولكل ما كانت
ترتاح إليه نفس قيس . . . من رؤى وأحلام ؟! . . . ولكل
ما كانت تطمئن إليه روح قيس . . . من تفاؤل وثقة ؟ ! . . .
ولكل ما كان يطرب له قيس ، بكل كيانه . . . من فتنة ، من

روعة الجمال . . . فى أوتار الخيال ! . . . ومن إبداع ، فى وثبات الحياة . . . بوعى الشباب ؟ ! . . .

ربى رحماك . . . ربى ! . . . لمَ يكون ما نتصور فيه السعادة ، مصدر الشقاء ؟ ! . . . اليوم أدركت أن القلب ، وحده ، هو مصدر سعادة الإنسان . . . فإذا ما فرغ القلب ، انتهى كل شىء ! . . .

* * *

وما بلغ قيس ما بلغ ، فى ذكرياته وتأملاته . . . وما شعر بفراغ قلبه . . . وقد انتهى كل شىء ! . . حتى خيل إليه أنه سمع صوتاً ، من الضريح ، يناديه : قيس ! . . فأجاب : لبيك ، هند ! . . سمعت النداء ! . . .

وما لبث أن أخذ يتلوى تلوى الثعبان ، تحرقه النار ، وأخرج من جيبه ورقة ، وضعها على الضريح ، وكانت تعبيراً عن آخر أمل له فى الحياة إذ يستعطف صخراً ، أبا هند ، ويرجوه بأن يسمح بدفنه فى لحد يضم الحبيبة . . . فيجمع الموت بين من أصر على تفريقهما ، فى الحياة ! . . . ثم انتضى خنجراً ، كان يخفيه ، بين ثيابه ، ليغمده فى قلبه ، مستلقياً على قبر هند ، ليمتزج دم قلبه بذلك التراب المضمخ بطيبها ! . . . وما كاد يصوب الخنجر إلى موضع القلب ، فى صدره ، حتى سمع صوتاً يهتف به ، قيس ارتدع . . . وألق سلاحك ! . . . فجمد ، ويبست يداه ! . .

وما تراءى له شبح هند ، حتى استرخى . . . فوقع الخنجر . . . وركع على قدميه . . . وعقد لسانه . . . فلم يستطع كلاماً !..

تلاقت نظرات العيون . . . وتناجى الحبيبان ، فى صمت رهيب . . وعلى طريقة الأرواح . . . فى عالمها ! . . . . فأفرج عن قيس ، وأفرخ رعبه . . . فسمع هنداً تقول :

ما عهدتك جباناً ، يا قيس ! ! . . . ألأول إخفاق ، فى حياتك ، يستولى عليك اليأس ، فتحاول الانتحار ؟ ! . . . والانتحار جبن ، لا يليق بالشباب ! ! . .

جدير بالشباب أن يسترخص حياته ، وأن يفضل عليها الموت ، فى سبيل كرامته ، ومجد أمته وبلاده . . . ولكن بالكفاح . . . لا بالانتحار ! . . . والكفاح أمل ، يطيب فيه الاستشهاد . . . والانتحار يأس تنتشر منه أخبث روائح الضعف والجبن ، والاستخذاء ، والانهيار ! . . . وإنما ينتصر على النكبات ، وعلى الموت . . . من يعرف كيف يموت ! . . .

قيس ، أتذكر إذ كنت تندب فلسطين ، وتعبر عنها بأندلس العرب الثانية ؟ ! . . أنسيت أننى كنت أعلل فقد الأمجاد ، وخسران البلاد ، بانتشار وباء روح الانتحار فى الأمم ؟ ! . . ومالك فقدت وعيك ؟ وعهدى بك واعياً فى شبابك ، فغفلت عما انتهت إليه المناقشة بيننا ، آنذاك ،

فأثبت ، أنت ، بأن الانتحار قد يكون مادياً ظاهراً بالسلاح أو بالمخدرات ! . . . وقد يكون معنوياً خفياً بالاستهتار ، والاستخذاء ، والغفلة واللامبالاة ؟ ! . . وأن الأمم الغافلة عن ذاتها ، تنتحر ، ولا تشعر ! . . . أين أنت الآن من حكمة ، عبرت عنها ، أنت ، إذقلت : الويل لأمة تنتحر بتخاذلها ! ! . . . فيمقت أفرادها الحياة ، لأنهم يجبنون عن مواجهتها ، فينتحرون إذا ما أخفقوا ، بالسلاح ! ! .. أو بمايفقدالوعى ، بالتخدير ! ! ... ألم تعدنى بأنك نذرت نفسك لأمتك ؟ ! . . فأين وفاؤك لنذرك ؟ ! . . أنسيت قيس ! ! . .

قيس . . . قيس . . . استمع ما أقوله لك . . . وفكر فيه ملياً فى خلوتك ، فلا تستطيع الآن مناقشة روح ، بادلتك الحب والحنان ، وثق بما أقول : إننى أنا الحياة ، ولم تكن هند سوى شكل اتخذته ، لأبعث فى روحك رسالتى ، فتكون رسول الحياة للعرب ! ! . . . لاتعجب ، فإن لقومك العرب ، عندى مقاماً ، ولى فيهم أمل . . . ولكنهم لايزالون عن حقيقتهم غافلين ! ... فهلا توقظ فيهم ما خدر من شعور ؟ ! . . .

قلت لك مراراً : لن أكون لغيرك . . . فلم تدرك ، من قولى هذا ، مفهوماً آخر ، هو أننى أكون لك أيضاً ! ؟ . . أنا لك بكليتى ، وأنا لكل الأحياء ، بكليتى ، دائماً . . . وسرى

أننى لا أتتحقق ، تحقيقاً صحيحاً ، إلا حينما تنسجم فى ذاتى المتناقضات . . . فأنا بكليتى ، فى كل إنسان ، وأنا بكليتى فى كل مجتمع وأمة ، وأنا بكليتى فى الإنسانية جمعاء ، بل فى جميع عوالم الأحياء ! . . والجماد . . . دونما تجزئة ، ولا تعداد فمن أدرك سرى ، اكتشف نواميسى . . . ومن يكشف نواميسى أخضع له ، بقدر ما يحسن السير على ضوئها ، وبما توجب من سلوك ، وتصرف . . . ومن يجهل النواميس ، يسىء التصرف ، لأنه يغفل عن حقيقة ذاته ، فأنتقم منه . . . وما أقسى ما تنتقم به الحياة ! . . . إننى الرحمة كلها . . . وإننى النقمة كلها . . . وهذا كله من مفاهيم المتناقضات . . . ولا تنسجم المتناقضات إلا بالوعى . . . ولذلك كانت الأمم بحاجة ، فى نهضاتها ، لوعى الشباب فيها . . . وكان الشباب ، فى تكامله ووثباته ، أشد ما يكون حاجة لوعى الذات للذات ! . . .

فاستمر على وعيك لذاتك ، على ما تركتك ، إذ كنت هنداً ! . . . فستجدك فتاتك ، وستجد عندها الحب ، على أصدق ما يكون الحب ! وستذكر ما حييت ، دروس هند الحياة ، فى وعى الشباب ... وإياك أن تنسى تلك الدروس وإياك أن تنسى رسالة الحياة ، إلى قومك العرب ، فلعهم يعودون لذاتهم ، ولحقيقتهم ! . . . وإلا ، فقل لهم أن يكفوا عن شكوى

الدهر . . . فهم الدهر . . . وعن بكاء الأمجاد . . . فهم قد ضيعوها . . . وعن الصراخ والنواح . . . فلا ينفع الغافل صراخ ، ولا نواح ، ولا بكاء ! . . . بل كثيراً ما تضره . . . وهذه كلها حمق ، وسخف ! ! . . . لا تحل مشاكل الحياة بالبكاء والنحيب . . . ولا بالشكوى ، ولا بالكلام ! . . .

قل لهم : إن الحياة تتشوق لإستعادة النهضة ...في وثبة للعرب تشبه تلك الوثبة ... فيعودون لسيرتهم الأولى ، في ركب الحضارة. . وفي المقدمة . . . إن الزمن قد استدار ، والفرص سانحة ! فلا يجدر بفطن ، تذوق المجد والعزة ، أن يضيعها . . . ولا إنقاذ إلا بتربية ، يوقظ أجواءها وعى الشباب ! . . والعاقبة للمتقين . . . يتقون نقمة الحياة ، باتباع نواميسها ! في وعى صحيح ! . .

وغاب الشبح . . . وعاد قيس ، يبلغ رسالة الحياة ، في وعى الشباب . . . أمل الحياة . . . وإطلالتها المتجددة . . . على الوجود ! ! . . .



وضة الطفل

١ أرنبو والكنز
٢ كتكت المدهش
٣ عيد ميلاد فلة
٤ فرفر والجرس
٥ ذيل الفأر
٦ البطة السوداء
٧ انتصار فيروزة
٨ حسن والذئب
٩ حبة القمح
١٠ زحلف الشجاع
١١ ذكاء سمسمة

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد الطفل فيها قصصاً مفيدة مزينة بالصور المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصدرها

دار المعارف

